ذكريات في الترجمة

دنيس جونسون ديفز

تقديم: نجيب محفوظ

ذكريات في الترجمة

ذكريات في الترجمة

تأليف: دنيس جونسون ديفز

تقديم: نجيب محفوظ

ترجمة: كامل يوسف حسين

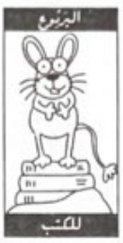

الطبعة الأولى ٢٠٠٧ اليربوع للنشر والتوزيع
ص.ب ٣٣٣٨٣٨ دبي الإمارات العربية المتحدة

www.jerboabooks.com
ISBN 978-9948-431-31-2
حقوق الموضوع: © دنيس جونسون ديفز

ترجمة: كامل يوسف حسين
تمت الطباعة في الهند
رقم إذن الطباعة: 1523
التاريخ: 25 ديسمبر 2006

جميع الحقوق محفوظة ولايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نسخه في شكل أو نظام لخر أو نقله بأي شكل كان، أو أي وسيلة أخرى (إلكترونية، ميكانيكية، تصوير، تسجيل أو بأي شكل لخر مهما كان) دون إذن خطي مسبق من الناشر، وأي شخص يقوم بعمل له علاقة بهذا الكتاب، دون إذن من الناشر، يعرض نفسه للملاحقة القانونية والدعوى القضائية.

إهداء

إلى باولا ، التي قدمت معظم صور هذا الكتاب ،

فضلاً عن الكثير غيرها.

مقدمة

بقلم: نجيب محفوظ

كم هو عظيم ذلك الشعور الذي ينتاب المرء عندما تتم ترجمة أعماله وقراءتها على الصعيدين المحلي والدولي ! إن دنيس جونسون ديفز الذي أعرفه وأحترمه منذ عام ١٩٤٥ هو أول من ترجم عملاً لي، وكان عبارة عن قصة قصيرة، ومنذ ذلك الحين قام دنيس بترجمة العديد من كتبي، لذا فأنا أكن له تقديراً خاصاً. والحقيقة أن دنيس بذل جهداً لا يضاهى في ترجمة الأدب العربي الحديث إلى الانجليزية وترويجه. فقد كان دائم البحث عن كتاب جدد موهوبين والعمل ليس على ترجمة رواياتهم ومسرحياتهم وقصصهم القصيرة وقصائدهم فقط، بل أيضاً على إيجاد ناشرين للترجمة.

لقد تقدم العمر بكلينا عدة أعوام منذ ترجم دنيس تلك القصة القصيرة الأولى لي، ولقد آن له أن يسترجع مسيرة عمله الطويلة المميزة، ويسطر قصة بلوغه ريادة الترجمة الإنجليزية للأدب العربي الحديث وقصته مع بعض الكتاب الذين التقى بهم خلال تلك المسيرة.

يسعدني كثيراً أن كتب دنيس هذا الكتاب البالغ الروعة، وأتمنى أن يحظى قارئه بنفس القدر من السعادة الذي حظيت به من معرفتي بمؤلفه على مدى ستين عاماً.

١

دفعت بي مجموعة بعيدة الاحتمال من الظروف إلى درب دراسة اللغة العربية، فبعد أن أمضيت طفولتي في القاهرة أولاً، ثم في وادي حلفا بالسودان، وأخيراً في أوغندا وكينيا، عدت إلى انجلترا، بناء على أوامر الطبيب، وحيداً في الثانية عشرة من عمري، في أعقاب نوبة من الديسنطاريا الأميبية. ولحق بي أبواي بعد شهور عدة، وسرعان ما عرفت الطعم المقيت للقسم الداخلي بمدرسة خاصة صغيرة، عقب إجتيازي امتحان دخولها. وقد تقرر أنني ينبغي أن أدرس المواد الكلاسيكية، فغدوت سريعاً أحتل المرتبة الثالثة والعشرين في صف يضم خمسة وعشرين طالباً. ووجدت أن كلاً من اللغتين اللاتينية واليونانية القديمة لا تحملان إلا القليل من المباهج بالنسبة لي، وفضلاً عن ذلك وجدتهما بالغتي الصعوبة وغير مثيرتين للاهتمام بصفة أساسية كذلك، لانهما فيما بدا لي ليس هناك من يتحدث بهما. وفي الرابعة عشرة من عمري كان من المتوقع مني خوض امتحانات القبول بالجامعة، على الرغم من أن تقارير أساتذتي عني كانت تشير إلى أنني من غير المحتمل أن اجتاز هذه الامتحانات، وسيتعين عليَّ قضاء العام المقبل في الصف الدراسي نفسه.

لم تحمل لي المدرسة إلا القليل من السرور وقدراً معيناً من الألم، حيث جرت ممارسة الضرب بالعصا بحرية. وروعتني فكرة قضاء أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى في ظل هذا النظام القاسي. وحتى الألعاب الرياضية لم تمنحني فترة راحة، حيث كانت ممارسة لعبة الرجبي تتم في ظروف جليدية – لم أعتد على مناخ انجلترا قط – بينما أثارت الكريكيت ضجري، باستثناء الفترات القصيرة التي يحين فيها دوري لضرب الكرة بالمضرب. وساعد نشاطان اثنان فقط في انقاذي من الضجر التام، النشاط الأول هو لعبة الفايفز التي تصيب راحة اليد بالألم الموجع. وكان هذا يعني أنه بين الحين والآخر كنت أنسل من بوابة المدرسة، حيث يتم اصطحابي للعب في مدرسة أخرى، وهو ما يعني في كل الأحوال شرب الشاي وتناول الكعك بعد لعب المباراة. وكانت العقبة الوحيدة غير المتوقعة فيما يتعلق بهذه اللعبة هي أنها يتم لعبها بين أربعة جدران، مع وضع يدي المرء، على نحو غير ملائم، في قفازين يتخذان خصيصاً لذلك، وبكرة صغيرة، صلبة. وتعرضت يداي على نحو محتم للرضوض والكدمات، ولم يكن بالوسع حمايتهما إلا بوضع شرائح صغيرة من اللحم النيىء داخل القفازين.

كانت اللعبة الأخرى التي أظهرت بعض البراعة الفائقة فيها هي الاسكواش، حيث كنت ألعبها قبل الالتحاق بالمدرسة، وقدمت أمي المال ليتاح لي تلقي دروس فيها على يد مدرب محترف. هكذا، وعلى الرغم من صغر سني، أصبحت فجأة بطل المدرسة. لكن هذه الوضعية انتهت عندما أُعلنت قاعدة تقضي بأن الملاعب لن تكون متاحة إلا للفتية الذين تزيد أعمارهم عن ستة عشر عاماً، وذلك لأن ملعبي الاسكواش كانا محجوزين بصورة مستمرة، وعجز عدد من الفتية الأكبر سناً عن العثور على ملعب خال. وعندما أبلغت أبويَّ بذلك، فوجئت بأن أبي، الذي لم يكن يهتم بالرياضة، قد استشاط غضباً حيال فكرة منع ابنه من أداء اللعبة التي يتفوق فيها، فاصطحبني معه إلى المدرسة في الفصل الدراسي التالي، ومضى للقاء الناظر، وفي ذهنه جعلي أشكلً استثناء من القاعدة الجديدة. غير أن الناظر أعلن عجزه عن القيام بأية استثناءات، فالقاعدة تظل هي القاعدة. بادر أبي، الذي كان يشعر بخيبة الأمل حيال أدائي المتواضع في اللاتينية واليونانية القديمة وازاء الحقيقة القائلة إنه ستُطلب مني إعادة

العام الدراسي، بتوجيه إنذار إلى الناظر، فإما أن يسمح لابنه بلعب الاسكواش، وإما أنه سيسحب من المدرسة. تساءل الناظر بإلحاح شديد عما عسى أبي أن يقترح القيام به نحوي إذا تم سحبي من المدرسة، لكن أبي رد بأن ذلك ليس من شأنه.

هكذا وجدت في الرابعة عشرة من عمري أن شيئاً لم أكن قد حلمت به حدث، حيث تقرر إخراجي من المدرسة، ثم سألني أبي عما عساني أود الآن القيام به. وفي التو ترددت في الأسماع إجابتي: «أود دراسة اللغة العربية»، كما لو أن هذه الفكرة كانت تختمر في ذهني منذ بعض الوقت. وفي حقيقة الأمر أن مثل هذه الفكرة لم تخطر ببالي من قبل قط، ولم أكن أدري في ذلك الوقت أن اللغة العربية التي سأدرسها كانت لغة كلاسيكية، شأن اللاتينية واليونانية القديمة، مع نحو أكثر تطوراً. وعلى الرغم من أنني في طفولتي في وادي حلفا، عندما نشأت وسط الأطفال السودانيين، كنت أتحدث عربية طليقة، إلا أنني نسيت كل كلمة منها، فالمرء في طفولته يتعلم لغة ما بسرعة، ولكنه ينساها بيسر مماثل. وأحسب أنني كنت قد شعرت بأن أبي سيسعده مثل هذا الاقتراح، حيث كان هو نفسه قد بدأ مسيرته في الجامعة بدراسة اللغات العبرية، الآرامية، والسريانية، قبل أن تتدخل الحرب، فينتقل إلى دراسة الحقوق. وفي الحقيقة أن أبي – وهو ابن قس رقيق الحال – لم يكن قد أفلح في دخول جامعة كامبردج إلا من خلال معرفته، فيما هو يدرس بالمدرسة، بوجود منحة لدراسة اللغة العبرية من شأنها أن تتيح له مكاناً في الجامعة. وبمعرفة لا تتجاوز الإلمام بمبادئ العبرية كان المرشح الوحيد للمنحة، فظفر بها.

لكن موقفي لم يكن على ذلك القدر من البساطة، فقد وضع أبي نفسه في موضع دقيق، حيث لم يكن من اليسير الآن العثور على مكان لي في مدرسة أخرى. وقبل اتخاذ أي قرار إضافي، فيما يتعلق بمستقبلي، كان من الضروري أن أعكف الآن على العمل بجد لاجتياز الامتحان، الذي كانت المدرسة قد تنبأت بأنني أحتاج عاماً آخر كاملاً لخوض غماره. وكان الحل الوحيد بالنسبة لي هو العمل بجد بإشراف مدرس خصوصي يؤهل الطلاب لاجتياز الامتحانات في برمنجهام (حيث كنا نقيم آنذاك) حتى الصيف، عندما يمكنني المضي إلى كامبردج لخوض الامتحان المعروف باسم «ليتل – جو». ومن شأن النجاح في هذا الامتحان أن يؤهلني للحصول على مكان في

كلية سانت كاثرين، وهي الكلية العتيدة التي درس بها أبي. وهكذا في غمار إدراكي للمخاطرة التي خاض أبي غمارها بإخراجي من المدرسة في مثل هذه السن المبكرة، كرست نفسي للاستعداد للامتحان المرهوب.

عندما مضيت مع أبي لخوض الامتحان، نزلنا في كليته القديمة. كنت لا أزال فتى في الخامسة عشرة من العمر، وقد وجدت نفسي وسط شبان يكبرونني بثلاث سنوات أو أربع، ولم تخل الأيام القليلة التي أمضيتها في الجلوس للامتحان من حادث.

ففي صباح اليوم الأول ذاته، ولما كنت في حالة عصبية إلى حد كبير، ألفيت نفسي عاجزاً عن فتح رتاج المرحاض، ولم أخرج منه بالفعل إلا بالتسلق والاندفاع عبر الفتحة الضيقة الموجودة أعلى الباب، وهكذا جلست لأداء الامتحان متأخراً بضع دقائق بالنسبة للورقة الأولى.

على الرغم من أنني اجتزت الامتحان، فإن الكلية أخطرت أبي بأنه ليس بالوسع إلحاقي بها وأنا في الخامسة عشرة من عمري، غير أنني سيتاح لي، على سبيل الاستثناء، مكان بها عندما أبلغ عامي السادس عشر. ومن هنا فقد أُجريت ترتيبات خاصة لي لقضاء عام في مدرسة الدراسات الشرقية في لندن قبل الالتحاق بكامبردج. أما فيما يتعلق بالصيف فقد تقرر أنني ينبغي أن أمضي إلى القاهرة، حيث ساد الاعتقاد بأنني يمكنني تعلم مبادئ اللغة العربية على الأقل. وأُعدت ترتيبات لي للإقامة لدى مصري كان يعمل محاضراً بمدرسة الدراسات الشرقية. وأحسب أنني بعد أن عدت من شرق إفريقيا إلى انجلترا بمفردي، في الثانية عشرة من عمري، لم يرهبني توقع الذهاب إلى مصر وحيداً.

كان الشخص الذي تقرر أن أقيم في شقته - واسمه عبدالرازق - يقيم في منطقة تسمى السكاكيني، وهي ليست من أحياء القاهرة الأكثر نخبوية، ولم يبق في ذهني إلا القليل منها، باستثناء عنوان المبنى الذي أقمت فيه. وخلال السنوات الممتدة بين ذلك الحين والوقت الحالي، كنت فضولياً للعودة ورؤية المكان، وفي العام الماضي فحسب خطر لي فجأة أن أقترح على صديقي سعيد الكفراوي الانطلاق بالسيارة إلى هناك. وتصادف أنه يعرف الحي، لكنه أكد لي أنه لا وجود للشارع الذي ذكرته. غير أن

ذاكرتي التي تغطي خمسة وستين عاماً برهنت على دقتها، وعُثر على دار لاتزال قائمة في رقم ١٢ شارع سعيد.

لم يجتذبني الكثير في السكاكيني، وهكذا فإنني كنت أستقل الترام إلى وسط القاهرة بصورة يومية تقريباً، حيث كنت أجلس في المقاهي، وأتابع الدنيا وهي تمر بي. ومن ذكرياتي القليلة عن تلك الأوقات شعوري بالحرج لدى ركوبي الترام، حيث جلست من دون قصد في قسم مخصص للنساء، فاقتادني قاطع التذاكر بعيداً على نحو مُذل.

استيقظت ذات ليلة في السكاكيني على صوت خشخشة، وألفيت فراشي يضج بالحياة بفعل الصراصير. وعلى الرغم من احتجاجات مضيفي القائلة إن أبي قد رتب اقامتي هناك طوال وجودي في القاهرة، إلا أنني مضيت للإقامة في «البنسيون السويسري» الواقع في منطقة الانتكخانة بوسط القاهرة، حيث سأكون، على الأقل، قريباً من مقهى جروبي والمقاهي الأخرى التي كنت أرتادها. وكانت تلك بالفعل خطوة جيدة، حيث أنني صادقت شاباً من يوركشاير يدعى ويلف سميثسون Wilf Smithson كان يقيم في البنسيون نفسه، وأشفق علي الفتى الانجليزي الذي يعاني من الوحدة، والذي ظهر فجأة هناك. وكان يكبرني بعشر سنوات، ويعمل مندوباً في الشرق الأوسط لشركة مواد التجميل التي تنتج كريم نيفيا، ويمتلك سيارة، ويعرف المدينة جيداً، ومضينا لركوب الخيل مرات عدة عند الأهرام، وغالباً ما كنا نقضي المساء في إحدى دور العرض السينمائي الصيفية في الهواء الطلق بالمدينة. وقد تقاعد في جنيف، بعد حياة ناجحة كرجل أعمال في بقاع مختلفة من العالم، واكتسب الجنسية السويسرية. وفي جولاتي العديدة غالباً ما كنت أمر بجنيف، وأحل ضيفاً على ويلف وزوجته فرانسيس، بينما كانا في بعض الاحيان ينزلان بداري المطلة على الشاطئ في سالوبرينا بجنوبي غرناطة. وهناك، بعد خمسين عاماً، لاحظت لأول مرة تغيراً في سلوكه، فيما هو يغدو ضحية لمرض الزهايمر. ومن أكثر ذكرياتي مدعاة للحزن رؤيته في شقته بجنيف وهو يسأل فرانسيس عني غاضباً: «من هذا الشخص الذي يجلس في أرجاء الشقة طوال الوقت؟».

بينما كانت اقامتي في القاهرة ممتعة بما فيه الكفاية، فإن نسختي من كتاب «النحو

العربي» من تأليف ثاتشر لم تُفتح إلا بالكاد. وكنت قد حاولت على نحو مُني باخفاق بالغ استيعاب أساسيات اللغة العربية، وقرأت بفزع عن الإعراب، حركات المد القصيرة غير المكتوبة، التمييز، صيغ الشرط والأمر وصيغ جمع الأسماء غير القياسية التي لا نهاية لها تقريباً. وحدّثت نفسي بأن هناك ما يكفي من الوقت لكل ذلك عندما ألتحق بالجامعة.

كان مقر مدرسة الدراسات الشرقية، في ذلك الوقت، يتمثل في مبنى عتيق في شارع فاندون في فيكتوريا. واقتضى الأمر ما لا يقل عن نشوب الحرب العالمية الثانية لإقناع من بيدهم السلطة بأن اللغات الشرقية جديرة بالتشجيع، وفي وقت لاحق تم توفير مبنى رائع جديد في بلومزبري لما أعيدت تسميتها لتصبح مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية. وتألف زملائي في الدراسة، في المقام الأول، من أجانب، كان بينهم الشيخ عبدالعزيز المراغي المصري، وأستاذ من جامعة فاليتا يدعى جوزيف أكوالينا Joseph Aqualina والذي كان ينظم الشعر وربطتني به صلة الصداقة، برنارد لويس Bernard Lewis الذي يتصدر الآن مستعربي أميركا، والذي يتردد أنه يقدم المشورة لجورج دبليو بوش وأعضاء إدارته، عراقي يدعي الدوري، والعديد من الهنود. وكان هناك أيضاً طلاب آخرون يدرسون، على سبيل المثال، السنسكريتية والتبتية. وبدا أن معظمهم من طلاب الدراسات العليا، وبدا أن إجمالي عدد الطلاب لا يتجاوز دزينات قليلة. ولما كنت أصغر بعشر سنوات من أي شخص آخر، فقد كنت على نحو محزن خارج الإطار العام للأمور، وبدا أنه ليست هناك صفوف دراسية للمبتدئين في اللغة العربية، وذلك على الرغم من أن الشيخ محمد محمود جمعة (الذي قُدِّر له في وقت لاحق أن يصبح زميلاً لي في هيئة الإذاعة البريطانية) قاد خطاي إلى تعقيدات النحو العربي، بينما أوضح لي شخص آخر كيف أن لغة هندو - أوروبية، مثل الفارسية، تعد أسهل كثيراً من اللغة العربية السامية.

نزلت خلال معظم الوقت الذي أمضيته في لندن في شقة صغيرة في ميدان دولفين، في مجمع سكني كبير كان قد شيد حديثا في بيملكو على ضفاف نهر التيمز. وكانت هناك عدة مئات من الشقق في المجمع، وكانت السمة الرئيسية التي أثارت اهتمامي وجود العديد من ملاعب الاسكواش مع المدرب المحترف فيها ومساعده.

ولازلت أذكر أن اسم هذا المدرب كان توم لاند Tom Land، وكان كلب سلوقي يصحب بصفة عامة مساعده. ومضيت مرات عدة معه لقضاء المساء في أحد الملاعب لمشاهدة سباق الكلاب، وكان يعرف الكثير من مُلاّك الكلاب الآخرين ومدربيها. وكنت في بعض الأحيان أخاطر بشلنات قليلة في الرهان على السباق، فمشاهدة سباقات الكلاب، التي تنتهي في ثوان قلائل، تغدو أقل إضجاراً عندما يراهن المرء على أحد الكلاب. وأتذكر أنه ذات مرة، عندما بدا أن كلب صديقي يكسب السباق، قام رجل وسط الجمهور بإلقاء وسادة في سخط وسط الكلاب المنطلقة، فأعلن أن السباق لاغ.

عانيت من الوحدة، خلال الوقت الذي أمضيته في لندن، حيث كان زملائي من الطلاب أكبر مني كثيراً، ولم أكن أعرف أحداً غيرهم، وكانت عطلات نهاية الأسبوع صعبة بصفة خاصة. وغالباً ما كنت أمضي إلى الملاعب، وأشاهد الناس وهم يلعبون، أو أنتظر على أحر من الجمر نداء من توم لاند ليبلغني بأن أحدهم يريد لعب مباراة ويبحث عن شريك للعب معه، فهل أنا غير مشغول؟ أمضيت معظم الوقت في القراءة، وأذكر بصفة خاصة التأثير الذي تركه مجلد يضم قصص د.هـ. لورنس D.H. Lawrence الكاملة عليَّ، وهي مادة ذات تأثير مسكر على فتى في الخامسة عشرة من العمر. وفي بعض الأحيان كان أبي يضطر إلى القدوم إلى لندن من برمنجهام في عمل له، فينزل في شقتي. وفي كل الأحوال كنا نخرج لتناول طعام العشاء في مطعم متخصص في تقديم شرائح اللحم، ثم ننطلق إلى إحدى قاعات الموسيقى، التي كانت منتشرة في تلك الأيام، والتي كان أبي يستمتع بها.

لدى الذهاب إلى كامبردج في العام التالي، لم أكن مؤهلاً على نحو جيد لقراءة نصوص مثل كتاب «الكامل» للمبرد ومقتطفات عديدة من القرآن. وروعني كذلك أن أعلم أنه قد تقرر أنه ينبغي عليَّ أن أدرس العبرية كلغة ثانية، وليس الفارسية، وكنت قد اعتدت أن أشق طريقي بنفسي في معظم الأمور، إلا أنني تم إبلاغي بأنه لا يمكن تملك ناصية الفهم الصحيح للغة العربية إلا بمعرفة العبرية، وذلك على الرغم من أنني أعرف الكثير من العرب الذين يحظون بمعرفة ممتازة بلغتهم والذين لا يعرفون كلمة عبرية واحدة. وكانت هذه معركة خسرتها، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى أنني لم أكن مؤهلاً لمناقشة هذه القضية، ولكن كذلك بسبب الحقيقة القائلة إن أبي نفسه كان

قد درس في السابق العبرية على يد بروفيسور يدعى لووي Loewe، والذي تصادف أنه لايزال موجوداً في كامبردج، وسيكون أستاذي في العبرية. وقد أبديت تذمراً بالغاً من العبرية ومن أستاذي. وفي وقت جد مبكر أخطرني بأنني لدي مصادفتي لكلمة «يهوا»، الاسم المقدس للرب الذي لا ينبغي التلفظ به أبداً، فإنني ينبغي أن أقول بدلاً منه «أدوناي»، وهي الكلمة التي تعني «إلهي»، وهذا ما دأبت على عدم القيام به، ليس استناداً إلى أي عناد من جانبي، ولكن لأنني كنت أتعثر في الحروف العبرية بصورة متواصلة. وقد أُثير كرهي الأولي للعبرية بفعل إدراكي أنه بينما حظيت العربية والفارسية بالعرف المتمثل في توفير المفاتيح للنصوص التي لا سبيل إلى ولوجها بغير هذه المفاتيح، فقد بدا أن النصوص الوحيدة المتوفرة في اللغة العبرية هي تلك المألوفة لدى المرء بالفعل من خلال قراءة الكتاب المقدس، وذلك على الرغم من أنه في حقيقة الأمر فإن الترجمة عن العهد القديم قد بدت مرتبطة على نحو غامض فحسب بالأصل العبري. وأذكر جيداً أن القاموس الضخم المعروف باسم قاموس براون، درايفز وبريجز، الذي كنت أعود إليه بصورة مستمرة، كان في حالة الكلمات المعروفة بصورة أقل يعطي معاني مقترحة وأمثلة أخرى في العهد القديم حيث ظهرت ومعانيها المحتملة في السياقات المختلفة.

كنت بالمصادفة، لسوء حظي، الطالب الوحيد الذي يدرس العربية والعبرية لخوض الجزء الأول من «ترايبوس» اللغات الشرقية. كما كان مطلوباً مني أن أقرأ مع بروفسور لووي أجزاء من القرآن الكريم، كجانب من الكتب المقررة بالنسبة للغة العربية. ولاتزال لدي الملاحظات التي دونتها فيما يتعلق بسورة الكهف، وأجدها قد تناثرت فيها كلمات عبرية، حيث تمثلت إحدى نظريات لووي في أن كلاً من اللغة العربية والقرآن نفسه مستمدان إلى حد كبير من العبرية ومن العهد القديم.

خلال الفصل الدراسي الذي أمضيته في كامبردج - بإجمالي خمسة فصول دراسية - كان الطلاب الوحيدون الآخرون الذين يدرسون العربية هم أبا إيبان Abba Eban (الذي أصبح في وقت لاحق وزيراً لخارجية إسرائيل) والذي كان أكبر مني بسنوات عدة، واعتقد أنه كان يدرس للحصول على درجة الدكتوراه، جيفري بيبي Geoffrey Bibby الذي حضر درساً أو درسين من دروس اللغة العربية معي،

وتخصص في الآشورية، وغدا في وقت لاحق عالم آثار شهيراً، وقام بأعمال تنقيب في تلال الدفن الدلمونية في البحرين، وستيفن نيش Stephen Naish الذي كان والده ينتمي إلى طائفة الكويكرز وعمل في إرسالية في لبنان.

لم يكن من قبيل المفاجأة أن توضح النتائج في نهاية العام رسوبي في اللغة العبرية. وبعد أن أكملت عاماً لم يتوَّج بالنجاح في كامبردج، أقبلت حرب لإنقاذي، كما حدث في السابق لأبي. وبدا أنه ليس لديه مال لمواصلة دراستي، ولذا تقدمت بطلب للحصول على وظيفة في دائرة الرقابة في ليفربول، وتم قبولي، ويفترض أن ذلك تم على أساس أنني درست اللغة العربية طوال عامين. غير أنني، في واقع الأمر، لم يكن بوسعي قراءة أبسط الرسائل المكتوبة باللغة العربية – حيث تقتضي قراءة العربية المكتوبة بخط اليد معرفة تفوق ما يحرزه المرء في الجامعة – ومع ذلك فقد بقيت شهرين أو ثلاثة أقوم بمراقبة الرسائل المكتوبة بالانجليزية، إلى أن اكتشف أحدهم أنني أصغر سناً من أن يتم توظيفي هناك على الإطلاق. وفي غضون ذلك، حصلت أمي على بعض المال من والدتها، فقررت على نحو سخي أن تستغل بعضاً منه بحيث أتمكن من مواصلة الدراسة في كامبردج.

كنت قد عقدت العزم، أياً كان ما سيحدث، على عدم مواصلة دراساتي للعبرية التي توجت بالفشل، وأعلنت أنني سأنتقل لدراسة الفارسية، وتم إخطاري بأنني حيث لم أدرس الفارسية في عامي الأول، فلا مجال أمامي لمحاولة تغطية عامين من دراسة الفارسية في فصلين دراسيين (كنت قد خسرت فصلاً دراسياً بالفعل خلال عملي في الرقابة. ومع ذلك فلا شك في أن بروفسور لووي كان يستشعر نحوي أحاسيس مماثلة لما استشعره حياله، وأسعده ألا يُضطر لمواصلة تدريس العبرية لشخص يعترض عليها بشدة على هذا النحو. وهكذا تم الاتفاق على أنني يمكنني، في نهاية المطاف، الانتقال لدراسة الفارسية.

صادفني حسن الطالع متمثلاً في مدرسين للغة الفارسية ألهماني في التو حب هذه اللغة وأدبها. وكانا كلاهما أستاذين من مدرسة الدراسات الشرقية، التي نُقلت إلى كامبردج بسبب الحرب، وكان أحدهما هو الباحث الروسي فلاديمير مينورسكي Vladimir Minorsky أما الآخر فهو حسن تقي زاده، الذي أعتقد أنه كان في السابق

السفير الفارسي في لندن. وتمثل سبب آخر في أن اختيار الفارسية كلغة ثانية كان قراراً يحمل السعادة معه في أنني كان لي صديق هندي (كان ذلك قبل تقسيم شبه القارة الهندية) شاركني سكني عندما كنت في لندن. وكان والد محمد أنور في وقت من الأوقات الطبيب الشخصي لملك أفغانستان آنذاك، وقدّر لمحمد نفسه أن يحظى بحياة عملية مميزة كمحام في باكستان، وكان مناوئاً للهندوس بشدة، وعرف رحمة علي، الذي ينسب إليه أنه أول من جاء بفكرة وطن للمسلمين، وأطلق عليه اسم باكستان.

كان محمد أنور يتقن الفارسية، بما في ذلك معرفته بالكثير من الشعر الغزلي الذي نظمه الشاعر محمد اقبال، الذي كان يكتب بكل من الأوردو والفارسية، وقرأ معي ذلك الجزء من «بستان» سعدي الذي كان مقرراً. وكان معجباً بشكل خاص بشعر حافظ، وحتي اليوم - وبينما بمقدوري بالكاد أن أقول «صباح الخير» بالفارسية - فإنني لايزال بوسعي أن اقتطف العديد من الأبيات من ديوانه. أما الأجزاء من «شاهنامة» الفردوسي، التي كان يتعين عليَّ قراءتها فقد أنجزتها مع بروفسور مينورسكي، الذي جعل تجربة قراءة هذه القصيدة القديمة الصعبة أقل كدحاً مما كان يمكن أن تكون، وذلك بإمدادي، على امتداد مسيرتنا، بكل أنواع معلومات الإضاءة الجانبية، حول موضوعات من قبيل الزرادشتية وتاريخ بلاد فارس قبل قدوم الإسلام. وفي غضون ذلك فإن «جهار مقاله»، العمل النثري الوحيد المقرر، (يتألف الأدب الفارسي من الشعر إلى حد كبير) أنجزت قراءته مع تقي زاده.

واصلت دراسة اللغة العربية، لكنني أثقلني الشعور بأنني يجري تعليمي لغة ميتة، لاتينية أخرى، الأمر الذي نفرني منها. وتمثل أحد العناصر التي أزعجتني في أن من قاموا بتعليمي اللغة العربية، الذين كان من بينهم البروفسور العظيم نيكلسون Nicholson الذي كان ضليعاً في أدب الصوفية ومترجم رائعة الفارسية «المثنوي» لجلال الديني الرومي، لم يقوموا - بحسب علمي - بزيارة أي مكان في العالم العربي قط، واقتصر اهتمامهم به على ماضيه. كان نيكلسون قد أوغل في العمر، لدى حلول الوقت الذي كان يعطيني فيه دروساً خصوصية، في أحد فصول الشتاء في غرفة عليا باردة إلى حد التجمد في مبنى يقع بشارع بيتمان، ولم يبد أنه داره، حيث أن المبنى

كانت له كل المظاهر التي توحي بأنه مهجور، وأتذكر أن الغرفة كانت مجردة تقريباً من الأثاث. وكان في ذلك الوقت متقاعداً، وأعطاني دروساً في الانشاء والاملاء. وتلقيت الانطباع – الذي آمل أن يكون مخطئاً – بأنه كان بحاجة للجنيهات القليلة، التي يحصل عليها من خلال اعطائي الدروس الخصوصية. وأتذكر القليل فيما يتعلق بهذا الرجل المتميز، باستثناء أنه عندما كان يملي عليَّ درس الاملاء كان ينطق اللغة العربية بلكنة انجليزية ثقيلة، وأن البرد الحاد في الغرفة جعل قطرات تسيل من أنفه.

كان استاذي الآخر في اللغة العربية هو بروفسور ستوري Storey وهو رجل شديد الحياء، يتحدث بصوت مرتفع للغاية. وبحلول ذلك الوقت كان يشاركني في دروس اللغة العربية ستيفن نيش، وقد قرأت «الكامل» للمبرد مع ستيفن على بروفسور ستوري. كنا كلانا نجلس إلى مائدة كبيرة يطوف بروفسور ستوري بأرجاء المكان دوراناً حولها، طوال الساعة التي يستغرقها الدرس. وكان يعترض طريقه سلك يمتد من مذياع موضوع على المائدة إلى المقبس الموجود في الجدار. وفي كل مرة يصل إلى السلك كان يبادر برفعه فوق رأسه، وينحني ماراً تحته. وقمت وستيفن بتخفيف حدة الضجر من الدرس برصد عدد المرات التي يدور فيها حول المائدة، ثم مع اقترابنا من نهاية الفصل الدراسي أشار بروفسور ستوري إلى أنه خلال العطلة الدراسية المقبلة يتعين علينا أن نتعلم اللغة الألمانية، وهي لغة قال إنها ضرورية لأي شخص يدرس العربية. وغني عن القول إن أياً منا لم يبد أي اهتمام بنصيحة مدرسنا. غير أنه خلال أول درس في الفصل الدراسي التالي كانت هناك إشارة في نصنا إلى شخصية تنتمي إلى المرحلة موضع الدراسة، وأنزل بروفسور ستوري موسوعة ألمانية ضخمة، وطلب مني أن أقرأ بصوت عالٍ المدخل المشار إليه. ولابد أنه كان جلياً بالنسبة لبروفسور ستوري أنني لم أفقه كلمة مما تعثرت فيه، ولكنه اكتفى بالإشارة، بصوته الذي يشبه نغمه الفلوت، إلى أننا الآن أصبحنا كلانا مطلعين على النحو المناسب فيما يتعلق بكذا وكيت، وأعاد الموسوعة ببساطة إلى مكانها على الرف.

كان يُطلب منا، قبل حضور درس ما، أن نقوم بتحضير صفحة أو صفحتين من كتاب «الكامل». وفي إحدى المناسبات أبهجني أنا وستيفن أن نجد أنه خلال الدرس المقبل سنتعامل مع فقرة تتضمن وصفاً لمحاولة اغتيال، يبتر في غمارها قضيب

الضحية التعس. وتقنا لرؤية الكيفية التي سيتعامل بها بروفسور ستوري مع هذا الأمر، ولكننا عندما وصلنا إلى هذه الفقرة عقب بقوله إننا جميعاً لاشك في أننا قد بحثنا عن معنى الكلمات التي تصادف أننا لم نعرفها، وأننا بمقدورنا الآن أن نواصل الدرس، وصولاً إلى الصفحة التالية.

لما لم يكن لي مدرسون تعد العربية لغتهم الأم، ولم يتوافر لديَّ نص يبدو من بعيد مماثلاً للعربية الحديثة، فقد مضيت أتساءل عن نوعية اللغة التي يتحدثها العرب اليوم، وبأي لغة تكتب صحفهم ومجلاتهم. وأذكر أنني قابلت ديفيد كاوان David Cowan الذي كان بين العديد من طلاب مدرسة الدراسات الشرقية الذين انتقلوا إلى كامبردج بسبب الحرب. وكان قد أقام في القاهرة سنوات عدة، واعتنق الإسلام، ودرس في جامعة الأزهر، وسيقدر له لاحقاً أن يؤلف كتاباً في النحو تصدره دارنشر جامعة كامبردج، وسيحل محل كتاب «النحو العربي» لثاتشر. وأتذكر أنني دعيت ذات مرة لشرب الشاي في مسكنه، ورأيت نسخة من مجلة عربية مطروحة هناك، وتأثرت كثيراً بقدرته على قراءتها. وعلى الرغم من تمكنه الفذ من ناصية اللغة العربية، فإنه لم تكن له حياة عملية أكاديمية ناجحة بصورة خاصة، ولم يقدر له أن يتقلد منصباً يتجاوز الأستاذ المساعد. وكان السبب في هذا هو أنه لم يكترث بالحصول على درجة الدكتوراه، ولم يقدم الحشد الوفير من الكتب والمقالات العلمية، الذي يعد شرطاً ضرورياً للترقي في العالم الأكاديمي.

كانت الحقيقة القائلة إن مدرسة الدراسات الشرقية قد انتقلت إلى كامبردج تعني أن عدداً من الأشخاص المثيرين للاهتمام قد أصبحوا موجودين في الجامعة. وهناك شخص آخر أصبح صديقاً لي في ذلك الوقت، وهو أ.ل. باشام A.L. Basham الذي كان يدرس السنسكريتية. كان شاعرا، ونشر رواية عن حياة الريف الانجليزي، أهداني نسخة منها، وكتب الاهداء بالسنسكريتية بالخط الديفاناجاري. وقدَّر له في وقت لاحق أن يصبح أستاذ التاريخ الهندي في مدرسة الدراسات الشرقية، وأن يؤلف كتاباً ضافياً في هذا الموضوع. وربطتني معرفة وثيقة كذلك بجون بلوفيلد John Blofeld وهو باحث في الشؤون الصينية ومترجم للعديد من النصوص البوذية وكذلك لكتاب عن التاو أهداني نسخة منه، وقد انتقل في وقت لاحق إلى بانكوك، حيث

عمل بالتدريس في الجامعة. وعندما عملت لاحقاً بشركة استشارات هندسية، وجدت نفسي ذات يوم في أبوظبي، ولما كان لي اهتمام بالبوذية فقد تمكنت من تبديل بطاقة العودة الخاصة بي بالدرجة الأولى إلى لندن، لأحصل مكانها على بطاقة بالدرجة السياحية تكفل وصولي إلى لندن عن طريق بانكوك. وهناك أمضيت أسبوعاً مع جون، وأصبحت على وعي بمحدودية تأهيلي لفهم الخلفية الثقافية للبوذية، حيث أنني لا معرفة لي باللغات البالية، السنسكريتية، التبتية، الصينية أو اليابانية. وعرفت خلال هذه الفترة شخصاً تعد معرفته احتمالاً بعيداً هو موسى الحسيني، الذي قُدِّر له أن يُعدم شنقاً لتنظيمه اغتيال العاهل الأردني الملك عبدالله. وأذكر أنني شاركته في قارب على نهر كام. فهل يمكن أن يكون هذا الإنسان الودود هو موسى الحسيني نفسه؟

جيفري باوا Geoffrey Bawa هو من أمضيت معه معظم وقتي في كامبردج، وقد كان كذلك عضواً في كلية سانت كاثرين، ولم يفقني حباً لها. وكانت كلية سانت كاثرين مشهورة في ذلك الوقت بتميزها في الرياضات المختلفة. وكانت غالبية كاسحة من أعضاء فريق الرجبي بها من الرجال المولعين بالموسيقى الصاخبة. وأذكر جيداً استدعائي لمقابلة مدرسي ت.ر. هين T.R.Henn وهو خبير في دراسة و.ب.ييتس W.B. Yeats والذي حمل رتبة بريجادير خلال الحرب. وذكَّرني بأن استثناء قد تقرر في حالتي للسماح بالتحاقي بجامعة كامبردج، في مثل هذه السن المبكرة، ومن هنا فإنه يتعين عليَّ بذل قصارى جهدي للتكيف مع القواعد المعمول بها. ويبدو أنه كان يتعين ألا يراني أحد وأنا أتابع التقدم الذي يحرزه فريق تجديف كلية سانت كاثرين في لقاءات التنافس على الكأس، التي كانت معلما سنوياً من معالم رياضة التجديف في نهر كام. وقد رددت - على نحو معقول تماماً حسبما اعتقدت - بأنني لست مهتماً برياضة التجديف، وعندئذ قيل لي إنني حتى إذا لم أكن مهتماً بها، فإنني ينبغي أن أظهر بعض الاهتمام على الأقل عندما يتعلق الأمر بقارب الكلية. وقدِّر لي في وقت لاحق التعرض لمزيد من المتاعب مع مدرسي، عندما لم ألتحق بفريق الاسكواش الخاص بالجامعة، بعد أن أُعطيت مكاناً في فريق الكلية للاسكواش، واعتذرت عن عدم مواصلة اللعب في فريق كليتي. وسألني دكتور هين عن هذا، فطرحت الرد غير المرضي المتمثل في أن رياضة الاسكواش أصبحت تثير شعوري بالضجر.

أمضيت معظم وقتي، على الصعيد الاجتماعي، مع جيفري باوا ومجموعة أصدقائه. وكان من سيلان، ويسخر من حقيقة كونه شاذاً، وكان يرتدي ملابس ذات طراز صارخ الألوان والتصميم، ويمضي في الكلية أقل قدر ممكن من الوقت. وكان يدرس اللغة الانجليزية، ولكنه لم يحمل دراسته محمل الجد البالغ، ورسب في ورقة اختبار الأدب الأنجلوسكسوني. غير أن النجاح الأكاديمي في كامبردج لم يكن مهماً بالنسبة له، حيث أنه كان ينتمي إلى خلفية تتسم بالثراء. وقدّر له في وقت لاحق أن يصبح محامياً أمام المحاكم العليا، وأن يمارس المحاماة لبعض الوقت في لندن. ولم يستمتع بذلك على نحو يمكن تفهمه، فقد درست بدوري الحقوق عقب ذلك بوقت طويل، ووجدت تجربة العمل بالمحاماة مقيتة على نحو ما ألفاها. وعلى الرغم من أنه لم يكن مهتماً بتحقيق نجاح أكاديمي في اللغة الانجليزية، إلا أنه كان قارئاً ضليعاً للأدب، ومنه علمت بأمر كتاب من نوعية كوكتو Cocteau وجيد Gide، وقد عرفهما كليهما خلال زيارات قام بها لباريس. ولما كانت ثقافتي العامة قد تم اعتراض مسارها في عمر مبكر، فقد ترك جيفري تأثيراً طيباً عليَّ، حيث عرفني بالعديد من المؤلفين الذين ربما كان يمكن ألا أقرأ شيئاً لهم. وقد علمت في وقت لاحق أنه لدى عودته إلى كولومبو أصبح مهندساً معمارياً، وتخصص في تصميم الحدائق، ثم في العام الماضي فحسب كنت أنزل في نادي «الرويال أوفرسيز ليج» في لندن، ومضيت أقلب المجلة التي يصدرها النادي، عندما لمحت مقالاً عن فوز جيفري باوا بجائزة أغاخان للعمارة. فبادرت إلى الكتابة له في التو، وتلقيت رداً من شخص يعمل لديه يبلغني فيه بأنه قد أصيب منذ سنوات عدة بفالج نجم عن جلطة.

عندما أُعلنت النتائج، بدا أنني اجتزت الامتحانات بصورة مناسبة في اللغة العربية، وحققت إنجازاً جيداً في الفارسية. وعلى الرغم من ذلك، فإن بروفسور نيكلسون كان قد أعرب بالفعل عن شكوكه الجدية فيما يتعلق بفرص تمكني من كسب عيشي من اللغة العربية، فكما أشار محقاً لم تكن هناك إلا ثلاثة مناصب أكاديمية أو أربعة في انجلترا يمكن أن يشغلها مستعربون، ولم يكن سجلي حتى الآن يؤهلني لمكان في الحياة الأكاديمية. وكنت قد استمتعت بدراسة الفارسية، وكان حرياً بي أن أود الاستمرار قدماً في دراستها، ولكن إذا لم يكن لي مسار في حياة عملية باللغة العربية فكيف يمكن أن تكون حالي أفضل مع اللغة الفارسية؟

كنت حتى ذلك الحين قد اجتزت الجزء الأول فحسب من امتحان مرتبة الشرف، وكان لايزال يتعين عليَّ خوض غمار الجزء الثاني، وفي ظل تلك الظروف بدا لي أن مما لا طائل وراءه المضي قُدماً باللغة العربية. وكنت قد ألقيت نظرة على الكتب المقررة بالنسبة للجزء الثاني، ووجدت أنها صعبة على نحو يشوِّش الذهن وممل، ومن هنا فقد قررت الانتقال لدراسة الانثروبولوجي، وشرعت في قراءة بعض الكتب التي تدور حول هذه المادة. ولست أدري كيف حسبت أن الانثروبولوجي سيتيح مسار حياة عملية لي بأكثر مما يمكن للغات الشرقية أن توفره. وعندما بدأت دراسة اللغة العربية لم يكن قد خطر ببالي أن اسأل نفسي أي حياة عملية يمكن لي أن أعيشها من خلال دراسة هذه اللغة. ولازلت أجد نفسي، في عمري الراهن، أسأل شباناً في مقتبل أعمارهم عما يخططون للقيام به في حياتهم، وأنا أعرف تمام المعرفة أنهم، في غالب الأحوال، ليست لديهم أدنى فكرة، ويريدون ببساطة أن يعيشوا الحاضر، وأن يتركوا المستقبل يتدبر أمر نفسه. وكان كل ما شعرت بأنني واثق منه هو أنني لم أكن أريد وظيفة مكتبية أو وظيفة تقتضي مني أن أقضي وقتاً في انجلترا.

٢

على أية حال، أنقذني من اتخاذ قرار اتصال هاتفي تلقيته من هيئة الإذاعة البريطانية، تطلب مني فيه الذهاب لإجراء مقابلة مع القسم العربي. وكانت اللغة العربية هي اللغة الأجنبية الأولى التي بدأت الهيئة، اعتباراً من عام ١٩٣٨، البث بها، ومضيت إلى دار الإذاعة، حيث قام العديد من الأشخاص بإجراء المقابلة معي، ثم تم اصطحابي إلى ستوديو لسماع نشرة أخبار. ولم يسألني أحد عما فهمته من النشرة، التي لم أفهم منها سوى كلمة واحدة. وأدهشني أن يقال لي إنني سيتم إلحاقي بالعمل كمتدرب، وإنني ينبغي أن أبقى في لندن إلى أن يتم الاتصال بي. وقد بقيت في مقر اقامتي في إيرلزكورت مع أصدقائي الهنود، بينما مضت صفارات الانذار من الغارات تدّوي كل ليلة، وقاطع القصف بين الحين والآخر ألعاب البريدج الثلاثية التي عكفنا عليها.

ساورني لبعض الوقت شعور بأنني تم نسياني، وأن هيئة الإذاعة البريطانية عدلت عن قرارها الخاص بتشغيلي، ثم تلقيت مكالمة هاتفية يُطلب مني فيها تقديم نفسي إلى دائرة الاستخبارات العربية في قرية صغيرة تدعى ساوث نيونجتون، غير بعيد عن إيفشام. وهناك وجدت أن رئيسي في العمل هو نيفل باربورNevill Barbour وهو مستعرب كان قد قام بتأليف واحد من أوائل الكتب عن القضية الفلسطينية تحت عنوان «السيادة المشروطـة» "Nisi Dominus" وهو أيضاً مؤلف كتاب عن المغرب.

وكان واحداً من المستعربين القلائل الذين لهم اهتمام بالنهضة الراهنة في الأدب العربي، وقد أنجز ترجمات لبعض كتابات الكاتب المسرحي توفيق الحكيم. ومن بين الآخرين الذين يعملون في الدائرة ل.ب. إيلويل – سوتن L.P.Elwell- Sutton الذي كان قد ألّف كتاباً في نحو العامية الفارسية، والتحق بالعمل باعتباره أول رئيس تحرير لمجلة «المستمع العربي» التي تصدرها هيئة الاذاعة البريطانية.

بدا أنه ليس هناك ما أقوم به في دائرة الاستخبارات العربية، التي لم تكن، على الرغم من اسمها، معنية إلا بتحليل الرسائل الواردة من المستمعين والرد عليها. وذلك على الرغم من أنني أعربت عن شكوكي في إنصاف القيام بدفع ثلاثة جنيهات أسبوعياً لي، بينما كان مطلوباً مني دفع ثلاثة جنيهات وثلاثة شلنات لقاء إقامتي ووجبتي الإفطار والعشاء، وأشرت إلى أنني في ظل هذا الترتيب أدفع من جيبي ثلاثة شلنات أسبوعياً وأظل بلا غداء ومن دون تدخين سيجارة. ولما كنت ملحقاً بمقتضى أمر ايواء رسمي على بيت نيفل باربور وزوجته الريفي الجميل، فقد كان ينبغي أن يكون مدركاً لعدم إنصاف هذا الوضع. وعندما أبديت شكواي، قيل لي إنني محظوظ لأنني لست في صفوف الجيش. وحتى في تلك السن المبكرة لم تكن اللباقة من سماتي، فرددت على نحو لاذع شيئاً ما بأنني في الجيش سأحصل على غذاء وإقامة مجانيين، وسأنال على الأقل مبلغاً على سبيل مصروف الجيب. في هذه المرحلة المبكرة من حياتي كنت أكتشف أن منظمة مثل هيئة الإذاعة البريطانية – وفي وقت لاحق المجلس البريطاني – تقتضي المعالجة بقدر معين من البراعة المحسوبة بدقة، إذا أراد المرء أن يتجنب التعرض للاستغلال.

تقرر بالفعل إرسالي إلى ايفشام، التي تتم منها عمليات البث الفعلية باللغة العربية. وكان رئيسي الجديد في العمل هو منظم البرنامج العربي إ.هـ.باكستون E.H.Paxton المعروف بترجمته للجزء الأول من سيرة الحياة الذاتية التي كتبها طه حسين، والتي صدرت بالانجليزية تحت عنوان «طفولة مصرية»، ويعد هذا المجلد من أوائل كتب العربية الحديثة التي تصدر في ترجمة انجليزية. وأتذكر أنه أبلغني أن هذا الكتاب لم يبع منه إلا مئتي نسخة فحسب. وبعد سنوات عدة عندما انطلقت بسلسلة «مؤلفون عرب» مع دار هاينمان، قمت بإعادة اصدار هذه الترجمة، وهي تواصل

الحياة الآن في طبعة أصدرتها دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة تشمل كذلك المجلدين اللاحقين، اللذين يشكلان مع المجلد الأول سيرة الحياة الذاتية لطه حسين. والمرء يقرر ما هو جلي للعيان فحسب في غمار قوله إن حياته ليست إلا شبكة متقاطعة. فذات عيد ميلاد دعاني باكستون وزوجته لتناول وجبة غداء العيد، التي التقيت خلالها ابنهما الصغير جوليان. وبعد ثلاثين عاماً دعاني صديق عُماني لزيارة بلاده، فقابلني في مطار مسقط رجل فارع القامة، ملتح، قدَّم لي نفسه باعتباره جوليان باكستون!

شملت واجباتي في إيفشام ماكان يعرف باسم رقابة قطع الإرسال، وبصفة خاصة رقابة البث المسائي الرئيسي، الذي لم يكن يشمل نشرة أخبار فحسب، وإنما أحاديث ثقافية وموسيقى كذلك. وكانت رقابة قطع الإرسال تعني وجود من يقوم بها في الاستوديو مع المذيع وقطع الإرسال عن المذيع إذا شرع فجأة في التعبير عن مشاعر العداء لبريطانيا. وبعد أن تُسند لي مهمة رقابة قطع الإرسال كان باقي العاملين من الانجليز أحراراً في الذهاب إلى بيوتهم في ساعة معقولة واللحاق بعائلاتهم. وشملت واجباتي الأخرى التدقيق على الترجمات إلى العربية للأحاديث التي سيتم بثها، وقراءة المواد من الخدمات الأخرى واختيار تلك المواد التي اعتبرها مناسبة للبث باللغة العربية، وكان المطلوب مني بعد ذلك اختصار تلك المواد وتعديلها. وبالإضافة إلى ذلك كان عليَّ القيام، مع رئيسي في العمل، بقراءة أي مواد مقدمة للبث والتعليق عليها.

كان ما أدهشني إلى حد كبير هو أنه، بغض النظر عن حوالي عشرين عربياً، لم يكن هناك شخص واحد في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية يمكن أن يقال إنه لديه ما يتجاوز الإلمام السطحي باللغة العربية. تري كيف أمكن أن تكون لبريطانيا هذه الإمبراطورية العظمى التي تضم عدداً كبيراً ممن تعد العربية لغتهم الأم ومع ذلك فإنها فيما يبدو ليس لديها شخص واحد يعرف هذه اللغة؟ إنني أتذكر، في وقت لاحق، ديفيد كاوان وهو يخطرني بأنه عندما أُسندت إليه وظيفة اختبار الأعضاء السابقين في الخدمة السياسية بالسودان (التي كان أبي في وقت من الأوقات عضواً بها) وجد أنه ليس هناك شخص واحد يعرف أي شيء يتجاوز عبارات بسيطة بالعربية، وذلك على الرغم من أنهم جميعاً كان مطلوباً منهم اجتياز امتحانات في اللغة العربية. وكيف تأتيَّ أن هيئة الإذاعة البريطانية قد نجحت في تمرير طلبها الخاص بإلحاقي في صفوفها –

أنا الذي كنت شاباً في الثامنة عشرة من العمر وفي حالة صحية معقولة ولم تكن لديَّ بالفعل خبرة بالعالم العربي - وإعفائي من الخدمة العسكرية على أساس معرفتي باللغة العربية؟ ألم يكن هناك رجال كبار في السن خدموا طويلاً في العالم العربي وبمقدورهم أداء مثل هذه الواجبات؟ إن الحقيقة أنني طوال الوقت الذي أمضيته في كامبردج كنت الشخص الوحيد الذي يدرس اللغة العربية وهذا لايظهر - على نحو ما أشير على سبيل المثال في كتاب ادوارد سعيد «الاستشراق» الذي يعد من أفضل الكتب مبيعاً - أن بريطانيا كانت مشغولة بتدريب الناس على دراسة اللغة العربية لكي يستطيعوا أن يصبحوا جواسيس وهلم جرا، ففي ذلك الحين لم تُبذل محاولة لتعليم اللغة العربية إلا بحسبانها لغة كلاسيكية ميتة. واقتضى الأمر نشوب الحرب ذاتها لإيضاح أن بريطانيا ليس لديها بالفعل مستعربون، أو أناس لديهم أي معرفة بلغات شرقية أخرى، وعندئذ فقط قامت الحكومة بترتيب تقديم منح لمن هم على استعداد لدراسة مثل هذه اللغات.

يبدو أنني كنت ممن لا يُستغنى عنهم إلى حد بعيد، بالنسبة لهيئة الإذاعة البريطانية، بحيث أنه عندما قام أبي بإجراء العديد من الاتصالات من القاهرة - حيث نُقل إلى البعثة العسكرية للجيش المصري - لإسناد مهمة لي في مخابرات الجيش، قاومت الهيئة بنجاح هذا التحرك.

بالنسبة لي، إرتقت السنوات الخمس التي عملت خلالها في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية إلى مصاف فترة الحضور، إذا صح التعبير، في جامعة ثالثة، جامعة كانت دراساتي فيها أكثر تركيزاً مما كانت عليه حتى الآن، حيث أنني في معظم أوقات يقظتي كنت أتدرب على اللغة العربية، على أيدي عرب، في كل من شكليها المكتوب والمنطوق.

شاركت رئيسي لبعض الوقت في مكتب يضمنا معاً، ثم حل الوقت الذي ابتعت فيه غليوناً كبيراً من خشب الكرز، وشرعت في تدخين مزيج نباتي كان أرخص كثيراً من الطباق، وأسفر الدخان الكثيف الناجم عن ذلك عن عثوري سريعاً على مكتب لي، اكتمل بسكرتيرة شابة، جذابة، كانت تحضر يومياً حاملة قطة سوداء كبيرة في سلة. ولم أكن معروفاً قط بنزوعي للترتيب، لكن القطة السوداء فاقمت الحالة الفوضوية للمكتب بأطباق حليبها ووعاء غائطها.

اختار العرب، وهم من المصريين في المقام الأول، الذين تم تشغيلهم كمذيعين ومترجمين وناسخين على الآلات الكاتبة،أن يقيموا، في غالبيتهم، في أحد الأكواخ برميلية الشكل، الجاهزة، المقامة في المنطقة نفسها التي تضم المكاتب والاستوديوهات. وقد أنقذهم هذا من القيام بالرحلة اليومية بحافلة خاصة إلى بلدة إيفشام الكئيبة إلى حد ما، حيث يمكن للمرء أن يُلحق بدار بمقتضى أمر إيواء رسمي. وكنت أنا نفسي قد أُلحقت تلقائياً بدار في البلدة في بداية الأمر. ووجدت نفسي في الدار نفسها التي يقيم بها يهودي مغربي يدعى ليون أبو العافية، وكان الشخص الأقرب مني في العمر في الدائرة، فأصبحنا صديقين مقربين. وكانت مسقط رأسه بلدة موجادور في المغرب، وهي بلدة بها طائفة كبيرة من اليهود، وأمضى معظم حياته هناك، حيث عمل أبوه بتجارة الشاي. وسمعت الكثير عن حياته المبكرة في موجادور، من دون أن أدري أنني بعد أكثر من خمسين عاماً سأعرف موجادور معرفة جيدة، تحت الاسم الجديد الذي أُطلق عليها، وهو الصويرة. وبينما كان ليون يتحدث العربية بلهجة مغربية بطلاقة فإنه لم يكن بمقدوره قراءة العربية الفصحى أو كتابتها. وكانت هيئة الإذاعة البريطانية، بعد أن أدركت أن الكثير من المغاربة يعجزون في ذلك الوقت عن متابعة نشرة الأخبار بالعربية الفصحى، قد قررت بث العديد من نشرات الأخبار بالعامية المغربية. ولهذا الغرض قام المسؤولون فيها بتوظيف ثلاثة مغاربة من المنتمين لقوات فرنسا الحرة. غير أن أياً من هؤلاء الثلاثة لم يكن يتحدث الانجليزية، وهكذا تم توظيف ليون ليترجم نشرات الأخبار ويمليها عليهم، وكذلك لكي يقوم كأفضل ما يستطيع بالتأكد من أنهم لن يقعوا في أية متاعب، حيث كانوا ثلاثياً لا تنقصه الخشونة. وأتذكر أنني ذات يوم سرت مع ليون قاطعين المسافة كلها الممتدة من إيفشام إلى المكاتب والاستوديوهات، فقد كان ذلك اليوم يوم سبت، ولما كان ليون متمسكاً بتعاليم اليهودية فقد أبى أن يستقل الحافلة، وصاحبته في مسيرته، وسرعان ما ندمت على ذلك، حيث بدأ المطر في الانهمار، ومضينا في سيرنا على مهل، وأقبلت الحافلة، وتوقف السائق ليتيح لنا الركوب، ونظر إلينا غير مصدق ما تراه عيناه، ونحن نرفض عرضه بأن يقلنا معه.

كانت مزايا الانتقال إلى الأكواخ المعروفة باسم أكواخ نيسين بالغة الوضوح، وأفصح رؤسائي الانجليز عن عدم موافقتهم، ولكن تبين أن ذلك كان أحد أفضل القرارات التي اتخذتها على الإطلاق، فلم أكن على مسيرة قصيرة من العمل ومقصف مفتوح على امتداد أربع وعشرين ساعة يومياً فحسب، وإنما ألفيت نفسي أقيم مع حوالي عشرين عربياً، لم يتوقفوا بصورة طبيعية عن تجاذب أطراف الحديث فيما بينهم بالعربية لمجرد أن شاباً إنجليزياً يقيم الآن معهم. وأثار اهتمام العديد منهم إصراري البادي على تعلم العربية، فحرصوا على مساعدتي، وتم إقناعي بالاحتفاظ بكراسة أدوّن فيها الكلمات التي تُعد جديدة بالنسبة لي، وتضمنت كراسة أخرى أبياتاً من الشعر والزجل، على حين كُرست ثالثة لتسجيل الأمثلة باللهجة المصرية. وفي الأمسيات كنت أجلس غير بعيد عنهم، متتبعاً بأفضل ما أستطيع حوارهم، وطارحاً الأسئلة عن معنى الكلمات والعبارات التي لم أعرفها. وتدريجياً وجدت نفسي أفهم المزيد والمزيد، وبعد بعض الوقت غامرت بنطق الجملة الغريبة. وكانت الأمسيات تُقضي، بصفة عامة، في لعب البوكر، وغالباً ما يمتد ذلك حتى الساعات المبكرة من الصباح، وهكذا تنفض الجلسة، وينطلق الجميع لتناول إفطار مبكر قبل نيل سويعات من النوم. وكنت أجلس معهم وأتابع اللعبة الجارية، حيث يتم كسب مبالغ كبيرة وخسارتها، ثم بدأت في اللعب، وأصبحت مدمناً عليه، حيث ألعب كل ليلة لأكسب، أو أخسر، ما يتجاوز راتبي الشهري الهزيل. وكانوا كلهم جميعاً، بالطبع، يحصلون على رواتب تفوق ما أحصل عليه بصورة كبيرة، وفهمت لماذا حُرِّم الميسر في الإسلام، ورأيت كيف أثَّر في العديد من زملائي، فقد اضطر أحدهم لبيع سيارته، وغادر آخر انجلترا وعاد إلى مصر، هرباً من المرابين الذين غدا مديناً لهم.

تم تصوير ما يمكن للقمار أن يفعله بالإنسان بصورة بالغة الوضوح بعد ذلك بربع قرن. وكنت قد عدت إلى انجلترا من الشرق الأوسط، وعملت بالمحاماة. واتصل بي محام قال إن لديه عميلاً كان يعرفني منذ سنوات.فهل لي في مقابلته؟ كان شخصاً – ليس عربياً – ينضم بين الحين والآخر إلى صفوف مدرستنا للعب البوكر. وتخرج من لعب البوكر للرهان على الخيل، ووقع الآن في حبائل دين خطير للعديد من منظمي المراهنات والمرابين، الذين كانوا يهددون بالذهاب إلى رؤسائه في هيئة الإذاعة

البريطانية، التي كان لايزال يعمل بها. وأسديت إليه النصيحة الوحيدة المعقولة التي يمكنني تقديمها له، وهي أن يتوجه إلى رؤسائه الإداريين في هيئة الإذاعة البريطانية ويخطرهم بصراحة بما يحدث. وقد دعمته الهيئة، وتوصلت نيابة عنه إلى ترتيب لتسوية الأمر مع دائنيه، لكنني سمعت من المحامي نفسه بعد شهور عدة أنه قد استدان مبلغاً كبيراً من المال من صديق له، وخسره كله في الرهان على الخيل، ثم في غمار اليأس مضى إلى متجر هارودز وسرق سلعة كبيرة الحجم أخفاها في معطفه، وتم إيقافه فيما كان يهم بمغادرة المتجر، وانتهى به الأمر إلى محاكمته بتهمة السرقة. وأحس محاميه بأنه دبر الأمر برمته لكي يتم اكتشافه بالجرم المشهود، وهو الآن يتطلع بالفعل إلى فترة التقاط أنفاس في السجن، بعيداً عن المتاعب.

مع تحول العربية إلى ما يقل عن كتاب مغلق، بالنسبة لي، حاولت أن أكتشف ما إذا كان هناك أي نوع من النهضة الأدبية في العالم العربي. هل تتم كتابة الروايات والقصص القصيرة؟ لقد علمت أن القصة القصيرة يقوم بكتابتها عدد محدود من الكتاب، أكثرهم شهرة هو محمود تيمور. وتصادف أن أبي، بينما كان في القاهرة، التقى محمود تيمور على نحو ما، وبعث إليَّ هذا الأخير بمجلدات عدة تضم قصصه القصيرة. وأصبحت على وعي كذلك بكتابات توفيق الحكيم من خلال زميلي نيفل باربور. وخلال ذلك الوقت قمت بترجمة قصة أو قصتين لمحمود تيمور، وتمكنت من نشرهما في بعض المجلات «الصغيرة»، مثل «إنترناشيونال شورت ستوري» و«زا وند أند رين»، التي كانت تصدر في ذلك الوقت.

من المثير للاهتمام، في هذا السياق، رؤية ما يقوله سير هاملتون جيب Sir Hamilton Gibb أحد المستشرقين القلائل الذين أبدوا في ذلك الوقت أي اهتمام على الإطلاق بالنهضة الأدبية، في الطبعة الثانية المنقحة من كتابه «الأدب العربي» الصادرة في ١٩٦٣: «غير أن كل هذه النتاجات من قصص قصيرة وروايات ومسرحيات تظل مقيدة بآفاق العالم العربي وتقاليده، وعندما تترجم إلى اللغات الأخرى، فإنها غالباً ما تكون أكثر إثارة للاهتمام باعتبارها وثائق اجتماعية منها بحسبانها منجزات أدبية».

شرعت كذلك في كتابة قصصي القصيرة الخاصة، وكنت محظوظاً بحيث وجدت وكيلاً أدبياً يدعى ستيفن أسك Stephen Aske وبدا أن مكتبه يديره شخص متقدم في العمر لا يكف عن التدخين يدعى ليسلي بيريسفورد Leslie Beresford والذي كان ينحى مشاغله جانباً ليشجعني على المضي قدماً في الكتابة. وقد حقق ذلك بصفة أساسية ببذل قصارى جهده لبيع القصص القصيرة التي أُرسلها إليه، وإن كان ذلك للنشر في مطبوعات غير ذائعة تصدر في استراليا. وقد كان النشر في أي مكان، على الدوام، حافزاً لي، حيث كنت على وعي دوماً بأنني لست بالعبقرية الأدبية. ولم يحدث أن راق لي وضع مخطوطاتي في درج مهمل قط، والحال كذلك بالنسبة للمهمة البغيضة المتمثلة في إرسال المخطوطات مع مغلف يحمل طوابع بريد لإعادتها إلى عنواني في حالة رفضها. وقد ظهر العديد من قصصي في مطبوعة «مودرن ريدنج»، ولكن ربما كان من الغريب بما فيه الكفاية أن ذروة انجازي في ذلك الوقت قد تمثلت في إشعار رفض للنشر، تلقيته من مجلة «ستوري» الأميركية المرموقة، وتضمن القول إنهم قد استمتعوا كثيراً بقصتي التي تحمل عنوان «الهزيمة الأخيرة»، والتي لم يكن بمقدورهم على الرغم من ذلك ولأسباب عدة القيام بنشرها. وكانت قصة استلهمتها من عدد من أسرى الحرب الايطاليين المرحين، الذين كانوا في مقتبل العمر، وكنا نلتقيهم بين الحين والآخر وهم يعملون في المناطق الريفية المحيطة بنا.

بعد خمسة وعشرين عاماً، قدمت بعض نماذج قصصي إلى دار كوارتيت للنشر في لندن، ووافق المسؤولون فيها على إصدار مجلد يضمها. ولم يحظ الكتاب الذي صدر تحت عنوان «مصير سجين» بالتفاتات تذكر إليه، باستثناء عرض له في «الأهرام ويكلي» بقلم صديقي جون رودنبك John Rodenbeck من الجامعة الأميركية بالقاهرة، وعلى نحو مدهش مقال بالغ التعاطف في «زا لتراري ريفيو» بقلم الروائي فرانسيس كينج Francis King الذي لم أعرفه إلا من خلال كتاباته. وقد أوضح لي هذا مدى محدودية الفرصة المتاحة أمام كاتب غير معروف ما لم يكن ناشرو أعماله يحظون بـ «النفوذ» الضروري لإفراز التفاتات في أجهزة الإعلام التي لها أهميتها.

علمت، خلال سنواتي في هيئة الإذاعة البريطانية، أن هناك منحة لدراسة اللغة العربية، في مدرسة الدراسات الشرقية، قيمتها خمسون جنيهاً استرلينياً، فتقدمت

لها، ثم علمت أن عدة أشخاص ممن كانوا في أول الأمر قد تقدموا للحصول عليها قد انسحبوا لدى علمهم بأن أحد العاملين في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية تقدم للامتحان الخاص بالحصول عليها! هكذا وجدت نفسي المرشح الوحيد. وفي وقت لاحق حصلت على منحة أوزلي التذكارية، وتم اقناعي بالحصول على دبلوم اللغة العربية الحديثة من مدرسة الدراسات الشرقية، الذي كان قد تم ادراجه حديثاً.

بقدر ما يمكنني أن أتذكر، فإن الكتب المقررة كانت «النظرات» للمنفلوطي، وهو كاتب درج على الكتابة بأسلوب عاطفي منمق، مجموعة مختارة من القصائد لثلاثة شعراء «محدثين»، هم المصريان أحمد شوقي وحافظ إبراهيم واللبناني خليل مطران، ومجلداً يضم كتابات سياسية وفلسفية لمحمد عبده. ولم يترك أي منهم انطباعاً قوياً لديَّ، وذلك على الرغم من أنني أُدرك الآن أن أحمد شوقي يلقى اعجاباً على نطاق واسع. ومن المؤكد أن هذه الكتب المقررة لم تعكس بأي شكل من الأشكال أي شيء يمكن النظر إليه باعتباره «حديثاً»، ومع ذلك فقد خضت غمار الامتحان، وأحسب أنني قد أبليت بلاء حسناً بصورة نسبية، باستثناء ورقة النحو، التي وجدتها تكاد تكون مستعصية على الفهم تقريباً. وكانت الأسئلة في هذه الورقة تدور، إلى حد كبير، حول نظرية النحو العربي، وأذكر أنها شملت سؤالاً حول جنس كلمات معينة، وبينما كان بمقدوري الإجابة عن النصف الأول من السؤال، فإن الحيرة استبدت بي حول تخمين الأسباب الكامنة وراء كون بعض الأسماء مذكرة والبعض الآخر مؤنثة. ولدى حضور المقابلة التي أعقبت الامتحان، أدهشني أن أجد أن واحداً من الممتحنين هو دكتور جمال الدين هيوارث – دان Dr. Gamal al-Din Heyworth - Dunne الذي كان قد عاد مؤخراً من مصر، حيث كان يحظى بوظيفة مهمة، تتضمن القيام بمهام الاتصال بين الجيش البريطاني والحكومة المصرية. وكان يحظى بالتميز النادر المتمثل في مقدرته على تحدث العربية بطلاقة. وكان هو الذي رتب لي، قبل عدة سنوات مضت، النزول عند محاضر مصري سابق في مدرسة الدراسات الشرقية، عندما زرت القاهرة في صيف ١٩٣٧. وفي أثناء المقابلة، قيل لي إنني لولا أن نتيجة امتحاني في ورقة النحو كانت سيئة لحصلت على الدبلوم بتفوق. ومن الطبيعي أنني سألت عن الإجابات عن الأسئلة المختلفة في ورقة النحو التي لم أستطع إكمال الإجابة عنها، وأذكر أن هيوارث

– دان أخطرني بأن الإجابة عن السؤال المتعلق بجنس أسماء معينة يمكن العثور عليها في ورقة أعدها مستشرق ألماني نُشرت في دورية علمية ألمانية، فبادرت إلى الإعراب عن رأي مفاده أنني أعتقد أن من غير المعقول أبداً أن يطرح على شخص يجري امتحانه لنيل دبلوم عام في العربية الحديثة سؤال يقتضي منه أن يكون قد قرأ مقالة في مجلة علمية المانية. وعلى الرغم من ذلك فقد تم منحي الدبلوم من دون الاشارة إلى التفوق.

من هنا أدهشني إلى حد كبير أن يتصل بي هيوارث – دان، بعد أسابيع قلائل، في عملي هاتفياً، ويحدثني عن تميز أدائي في الامتحان، ويسألني: هل لي في تناول طعام العشاء معه ومع زوجته فاطمة في شقتهما في هامبستيد؟ أبلغني هيوارث – دان خلال العشاء أنه يجري اعتماد كرسي خاص له في اللغة العربية الحديثة، وأنه لديه خطط عظيمة بالنسبة لمدرسة الدراسات الشرقية، التي ظلت وقتاً طويلاً للغاية في أيدي باحثين من طراز عتيق، وأنه يريد إدخال دماء جديدة في قسم اللغة العربية من خلال تعيين من هم على شاكلتي. وأخطرني بأنه من الضروري بالنسبة لي للمضي قدماً في حياة عملية أكاديمية ناجحة أن أحصل على درجة الدكتوراه. ورددت على ذلك بأنني ليس لديَّ لا الوقت ولا المال للقيام بذلك، فأكد لي أن مسألة المال لا تشكل صعوبة، حيث أنه يمكنه في يسر أن يرتب تمديد المنحة التي أحصل عليها إلى المدة المطلوبة، ثم استطردنا لمناقشة موضوع محتمل لأطروحة الدكتوراه، التي قال إنه سيشرف عليها بنفسه، ثم اختار موضوعاً يرتبط بالتعليم في مصر خلال القرن التاسع عشر (وهو موضوع ما كنت لأختاره، ولكنه كان قد كتب عنه) وجلس في التو وحرر مسودة رسالة يتعين عليَّ أن أبعث بها إلى المدرسة. وأوضح لي أن طلبي سيتم إقراره تلقائياً، حيث سيحول إليه للموافقة عليه.

أذهلني أن أتلقى رسالة من المدرسة، بعد أيام، تتضمن اخطاري بأن دكتورهيوارث – دان قد رفض طلبي، لأن الموضوع الذي اخترته غير مناسب، ولأن سجلي الأكاديمي السابق لا يؤهلني للتسجيل للحصول على درجة الدكتوراه. وكنت قد رأيت بالفعل، خلال تلك الأمسية الوحيدة التي أمضيتها مع هيوارث – دان، مدى هوسه بأوجه القصور في المستعربين الانجليز الآخرين، الذين قد يُنظر إليهم باعتبارهم منافسين محتملين، ولكنني لم أستطع تصور أنني أندرج في تلك الفئة، حيث أنني أصغر منه بعشرين عاماً. ما الذي

يبرر إذن تكبده كل هذا القدر من العناء لإسقاطي أرضاً بينما لم أكن قد بدأت بعد في التحليق عالياً؟ عقدت العزم في التو على ألا أطرق أبواب الحياة الأكاديمية.

غير أنه تصادف، بعد حوالي عشرين عاماً، عندما كنت أقيم في لندن، وقد أنشأت مكتباً متخصصاً في الترجمة العربية، أنني تلقيت اتصالاً هاتفياً من بوب سرجنت Bob Serjeant الذي كنت قد عملت في هيئة الإذاعة البريطانية خلال وجوده بها، والذي كان قد شغل كرسي اللغة العربية الحديثة في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، يطلب مني فيه القدوم لمقابلته. وسألني خلال اللقاء عما إذا كنت أود أن يُسند إليَّ منصب محاضر في المدرسة. ولم يكن بمقدوره أن يعرض عليَّ منصباً أرفع بسبب افتقاري للمؤهلات الأكاديمية، ولكنه اعتقد أنني ربما أود القيام بتدريس اللغة العربية، وانني على أية حال لن يكون مطلوباً مني التخلي عن مكتبي الخاص بالترجمة. وقد أثار هذا العرض اهتمامي، وقبلته، ثم غادرت مكتبه، ومضيت في دهليز إلى «القاعة المشتركة» التي تشكل ملتقى عاماً، حيث التقيت بالعديد من الأشخاص الذين كنت على معرفة بسيطة بهم. ولدى سؤالي عما أفعله بالمدرسة، أجبت بأنني التقيت لتوي ببروفسور سرجنت، وانني سألتحق بقسم اللغة العربية. وأقنعني الفزع الذي ارتسم على وجوه الحاضرين إزاء وجود منافس آخر محتمل يعوق ترقيتهم بالعودة أدراجي إلى مكتب بوب سرجنت ومطالبته بإعفائي من قبول عرضه الكريم. وعندما أعود بتفكيري إلى الغزوات الأخرى التي قمت بها للعالم الأكاديمي، فإنني أجد أن المرة الوحيدة التي استمتعت فيها حقاً بهذا العالم، وأحسست بالتحرر كلية من القلق، كانت عندما أمضيت عامين في العمل محاضراً في قسم اللغة الانجليزية بما كان يعرف آنذاك بجامعة فؤاد الأول في القاهرة. وقد كان السبب في شعوري براحة البال هناك هو أن زملائي جميعاً كانوا يعملون بالجامعة في القاهرة لأنهم كانوا يستمتعون بالإقامة في القاهرة، ولم تكن لديهم أي طموحات إلى أن يصبحوا في وضع يتجاوز ما هم عليه.

٣

عندما وضعت الحرب مع ألمانيا أوزارها، أصبحت أخيراً حراً في الانتقال من هيئة الإذاعة البريطانية. وقد سمعت أن هناك وظيفة في المجلس البريطاني في القاهرة لتدريس ترجمة اللغة العربية في المعهد البريطاني فتقدمت بطلب للحصول عليها، وتم قبول طلبي. وابتهجت أشد الابتهاج لمغادرة هيئة الإذاعة البريطانية والإفلات من مصاعب الحياة في انجلترا خلال الحرب كليهما. ولدى استقالتي قال لي رئيسي في العمل إنني ارتكبت خطأ كبيراً وإن مستقبلاً عظيماً كان في انتظاري في القسم العربي. ورددت، بطريقة نموذجية إلى حد ما، إنه إذا كان ماضي يعد مما يقاس عليه، فإنني سأصبح في خير حال بخروجي من الهيئة.

كان هناك على متن السفينة التي سافرت عليها إلى بورسعيد زميل لي في هيئة الإذاعة البريطانية، هو عبدالسلام علي نور، وهو مصري متزوج من سيدة ايطالية. وكان قد درس الفن في ايطاليا، والتحق بالعمل في هيئة الإذاعة البريطانية محرراً فنياً لمجلة «المستمع العربي». وقد أمضى الكثير من وقت الرحلة في انجاز رسوم كاريكاتيرية للمسافرين الآخرين، ولدى وصولنا إلى القاهرة قام بتقديمي إلى عدد من أصدقائه هناك. وبعد سنوات عديدة، عندما عدت إلى لندن وتوليت مسؤولية تحرير مجلة «أصوات» قدم بعض الرسوم بالحبر الصيني لقصة قصيرة من تأليف الطيب صالح.

قمت في القاهرة أيضاً بزيارة الناقد والكاتب لويس عوض الذي جمع بيننا وجودنا معاً وقتاً قصيراً في جامعة كامبردج. وعرفت عن طريقه العديد من المثقفين المثيرين للاهتمام، ومن بينهم الصحافي والكاتب المؤثر محمد مندور. ويبدو أنني كنت ذات يوم مع محمد مندور، وربما أيضاً مع لويس عوض، في حديقة جروبي، عندما رآني رئيسي في العمل، مدير المعهد البريطاني.

هكذا تم إبلاغي، لدى وصولي إلى المعهد، في صبيحة أحد الأيام، بأن المدير يرغب في لقائي، واستهل الحديث بالإشارة إلى أنني أمضى وقتاً أكثر من اللازم مع أصدقاء مصريين، وأنني ينبغي أن أختلط بشكل أكبر بزملائي الانجليز، ثم تابع قائلاً إنه قد رآني في جروبي مع محمد مندور. ولماذا لم أبلغه بأنني أعرف هذا الشخص المهم؟ رددت بأنني تم تعييني لتدريس الترجمة العربية، وليس للعمل كرجل اتصال مع المصريين، الذين قد يعتبرون مثيرين للاهتمام.

خلال عملي في المعهد البريطاني تعرفت بفؤاد منيب، وعن طريقه تعرفت بوالدته، ماري منيب، التي كانت ممثلة كوميدية شهيرة، وكانت من أعضاء فرقة نجيب الريحاني، التي كانت تقدم مسرحيات كوميدية بالعامية المصرية في مسرح الريتز بشارع عماد الدين، وقد شهدت مسرحية الريحاني الأخيرة، وهي بعنوان «سلاح اليوم»، وكانت مسرحية ساخرة من الحياة الحديثة في القاهرة، وكتبت عنها في ١٥ يونيو ١٩٤٦ في «سفنكس» ما يلي: «يستهل نجيب الريحاني، باعتباره الشخصية المحورية، حياته ببيع الكتب في المقاهي، وفي غضون أشهر وبالاستعانة بكثير من المخاتلة وبراعة التملص (ليسا من النوعية الأكثر اخلاصاً على الدوام) تنتهي به الحال مديراً لمصرف كبير. وفي نهاية المسرحية، عندما يخلص نفسه من تهمة النصب على نطاق كبير، يوضح نجيب الريحاني ما هو (سلاح اليوم)، فالصيغة البسيطة للتقدم في الحياة هي (إذا كنت ستسرق، فافعل ذلك على نطاق كبير، وعندما تسرق رغيف خبز تذكر ألا تأكل سوى النصف أو ثلاثة أرباع واعط الباقي للناس الملائمين، الذي سيكونون على هذا النحو مدينيين لك وسيضطرون لمساعدتك عندما تحل الكارثة الحتمية!)». ترى أليست هذه المسرحية الكوميدية مناسبة اليوم للتقديم؟ ولم يكن نجيب الريحاني يمثل في هذه المسرحيات الكوميدية فحسب، وإنما كان يساهم في

تأليفها وإخراجها. وأتذكر أن إحدى مسرحياته كان عنوانها «الطفيلي» وبالنسبة للجمهور كانت هوية الطفيلي واضحة تماماً، وسرعان ما أبدت السفارة البريطانية الاعتراضات على المسرحية، فأوقف عرضها.

كان حرياً بي ألا يفاجئني أن أجد، بعد أن انتهى عقدي، ومدته سنتان، أنه لم يتم تجديد هذا العقد. وكانت تلك ضربة لي، حيث كنت قد تزوجت مؤخراً فحسب، ولم يكن بمقدوري تبين سبيل يتيح لي مواصلة البقاء في القاهرة. غير أنه كما تقول إحدى آيات القرآن الكريم: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم». وهكذا فإنني ذات يوم، وبينما كنت أسير منفرداً، حياني رجل ملتح، وبادرني بهذه الكلمات: «ألست الشخص الذي استغنى المجلس البريطاني عن خدماته؟»، فأقررت بأن ذلك صحيح، وأن عقدي لن يتم تجديده، فاقترح ما يلي: «لم لا تجئ وتنضم إلينا في الجامعة؟». أجبت بأنني ربما لا تتوافر لي المؤهلات لتدريس اللغة الانجليزية في الجامعة، حيث أن دراساتي لم تشمل الأدب الانجليزي على المستوى الجامعي. «يكفي بالنسبة لي أنك قد طُردت من المجلس البريطاني. إنني على يقين من أنك ستبرهن على أنك ممتاز». كان الرجل هو براين ديفز Bryn Davies استاذ اللغة الانجليزية بجامعة فؤاد الأول، والتي سُميت لاحقاً جامعة القاهرة.

قضيت عامين سعيدين هناك مع العديد من الزملاء، الذين أصبحوا أصدقاء مقربين، ومن بينهم الروائي ب.هـ. نيوباي P.H Newby وهو واحد من أوائل الفائزين بجائزة بوكر، المستعرب المسلم مارتن لينجز Martin Lings المعروف كذلك باسم سراج الدين أبو بكر، والذي ألَّف من بين إصدارات أخرى كثيرة سيرة الحياة القياسية للنبي صلى الله عليه وسلم، الروائي روبرت ليدل Robert Liddell والشاعر هيلاري كورك Hilary Corke وكان هناك أيضاً محاضر يدعى كروفورد Crawford كنت ألعب معه الشطرنج غالباً. وبعد أن استقلت من الجامعة في ١٩٤٩ أفلت من التعرض في وقت لاحق للمضايقة المتمثلة في الطرد من وظيفتي وإخراجي من البلاد، على نحو ما حدث مع زملائي، عندما وصل عبدالناصر إلى سدة السلطة. وبدلاً من ذلك، واصلت زيارة مصر على أساس منتظم، وفي إحدى هذه الزيارات التقيت مصادفة بصديقي كروفورد. وقد دهشت حين وجدت أنه لايزال في القاهرة، فسألته

عما يفعله الآن. ورد قائلاً: «أوه، إنني مازلت بالجامعة». سألته: «ولكننا طردنا جميعاً؟» فابتسم ورد: «يبدو أنك لم تعرف أنني ايرلندي، ولست انجليزياً».

بينما كنت لا أزال أعمل في المجلس البريطاني، عكفت على الاشتغال على كتاب يضم قصصاً قصيرة لمحمود تيمور. وكان هذا الكاتب، الذي يعد رائداً للقصة القصيرة العربية، ينحدر من عائلة ارستقراطية من أصل تركي، وقد أعتدت لقاءه بصورة منتظمة إلى حد كبير، سواء وحده في مقهى الجمَّال، الذي كان يقع قبالة المعهد البريطاني تقريباً، أو في دعوات الغداء التي كان ينظمها للكتاب الناشئين، وكانت مآدب الغداء هذه تقام عادة في مطعم الخميس أو في مطعم آخر متخصص في تقديم الكباب. ولم يكن تيمور، على الرغم من خلفيته الأرستقراطية، بالذي يرتاد الفنادق الكبرى الباهظة، وعن طريقه ومن خلال مجموعته تعرفت بمعظم الكتاب الأصغر سناً في تلك الأيام.

ذات مرة كنت وتيمور نشرب القهوة منفردين في مقهى الجمَّال. وكان يصر دوماً على دفع حساب المشروبات، وكنت أعرف أن بمقدوره التكفل بذلك، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت لديه عادة غريبة، قوامها إخراج علبة سجائره وقطع سيجارة إلى نصفين، قبل أن يضع نصفاً في مبسم سجائره وإشعال ذلك النصف، ولاشك في أن تلك كانت محاولة للتقليل مما يدخنه. وقد اعتدت التدخين بدوري في ذلك الوقت، وأتذكر أنه في تلك المناسبة مرَّ بقربي رجل يبيع أمشاطاً وأغراضاً من هذا القبيل. وبعد أن لوحت له مشيراً إلى أنني لا أرغب في الشراء، أدركت أنني لم تعد لديّ سجائر، ولذا ناديته وطلبت منه أن يبتاع لي علبة سجائر بحاري، وهو الاسم الذي كانت سجائر «بليرز» تعرف به آنذاك. أخذ الرجل القروش العشرة مني، وعاد بعلبة السجائر والفكة المتمثلة في قرشين، فنفحته إياهما، لكنه أصرَّ على عدم قبول النقود. التفت إلى تيمور غير مصدق ما تراه عيناي، فقال: «سأخبرك بالسر في هذا»، ونادي الرجل ليعود إلينا، ثم سأله منذ متى غادر قريته وجاء إلى القاهرة، فأجاب الرجل بأنه وصل إلى المدينة حديثاً فحسب. قال لي تيمور: «أترى؟ لكن المدينة سرعان ما ستسرق منه نبله الطبيعي».

كان تيمور كريماً في دعمه للكتاب الشبان، على الرغم من أنه كان أقرب إلى روحية جيل سبق، وصُدم عندما أطلعته على قصة قصيرة كتبها صديق لي تتضمن وصفاً

لحمار يتبول، فيما هو يمضي مجتازاً طريقاً متربا. قال لي منقبضاً: «ليست هذه بالمادة التي يتخذ منها الأدب». وكان الكثير من الكتاب الذين ينتمون إلى جيل أصغر سناً ينظرون إليه على أنه يرى الحياة المصرية من زاوية غير واقعية، ويتبنى رؤية تكاد تكون رؤية سائح للشخصيات التي ينسج منها قصصه. وبعد أن قلت هذا، لابد لي أن أقرر أن القصة القصيرة أصبحت من خلال جهود تيمور الجنس الأدبي الأكثر رواجاً في مصر، طوال عقود من الزمن.

شأن كل كاتب يوظف اللغة العربية في كتابته، كان تيمور مشغولاً، إلى حد الاستغراق، بمشكلة ما إذا كان يتعين استخدام العامية في الأدب من عدمه. وفي وقت من الأوقات قام بتأليف مسرحيات عدة بالعامية، وكانت مسرحيات كوميدية حول الحياة المحلية. وقد وجدتها طريفة، واعتقدت أنها جيدة. غير أن تيمور وصل آنذاك إلى الاعتقاد بأنه لا يخدم الأدب العربي بتوظيف العامية، وأعاد كتابة هذه المسرحيات جميعها بالفصحى. وكانت النتيجة، في اعتقادي، كارثية، فكل ما نجح في القيام به هو إيضاح أن الفصحى غير مناسبة بالمرة كوسيط للفكاهة والمرح. من الذي سمع أبداً بشخص يطلق نكتة بالفصحى إلا إذا كان ذلك على حساب الفصحى نفسها؟ أتذكر أنني ناقشت مع تيمور ذات مرة المشكلات التي يواجهها الكاتب مع هاتين اللهجتين المختلفتين وقوله لي: «إذا أطال الله عمرينا، فسوف نرى أنه في غضون خمسين عاماً سيتحدث كل مصري بالفصحى». وقد أطال الله عمر أحدنا على الأقل بما يكفي لتبين ما إذا كانت الفصحى ستكتب لها الغلبة في غضون خمسين عاماً. ومن الجلي تماماً أن هذا لم يحدث، بل في حقيقة الأمر إنه مع التدهور في مستويات التعليم فإن أعداداً آخذة في التناقص من المصريين هي التي تمتلك ناصية العربية الفصحى بشكل صحيح، ومن المؤكد أن الاتجاه هو يقيناً إلى حلول العامية تدريجياً محل الفصحى، على نحو ما حدث مع اللغة اللاتينية واللغات الناشئة عنها. إنني أقدر أن هناك اعتبارات دينية وسياسية تجعل هذا الموضوع من الموضوعات التي ينبغي على الأجنبي أن يتلمس لخطاه موضعها وهو يطرقها، لكن التفكير بالتمني ليس كافياً لجعل الفصحى تسود. وفي غمار إلقائي نظرة على نسخة من عدد صادر حديثاً من «جارديان ويكلي» لاحظت اعلاناً عن مناصب مختلفة في جامعة الإمارات العربية

المتحدة، يتضمن ملاحظة مفادها أن كل المواد يجرى تدريسها باللغة الانجليزية باستثناء اللغة العربية والتاريخ الإسلامي.

ومن المؤكد أنه مما له أهميته أن كتاباً في منزلة توفيق الحكيم، يحيى حقي ويوسف إدريس قد استخدموا جميعاً العامية في كتاباتهم، مع قيام الطيب صالح في بعض الأحيان باستخدام العامية السودانية. وكما هو معروف، فإن نجيب محفوظ قد تجنب استخدام العامية، وجعل أبعد الشخصيات عن إمكانية التعبير عن نفسها بالفصحى تقوم بذلك. غير أنه لدى نقل رواياته إلى الشاشة فإن شخصياته تسترد لهجاتها المعتادة. وفي أواخر الأربعينيات، وقبل أن تجعل الشهرة من المتعذر على المرء تبادل الحديث معه عن كثب في إحدى المقاهي، ناقشنا مسألة اللغة هذه، وظل كل منا بعيداً عن الاقتناع بوجهة نظر الآخر. وكانت وجهة نظره، ببساطة تامة، أن اللغة العربية الفصيحة هي لغة يقرأها العرب كافة، وأنه من خلال استخدام العامية المصرية، في الحوار على سبيل المثال، فإن المرء قد ينفر غير المصريين من القراء ويبعدهم عما يكتبه. أما بالنسبة للقراء المصريين فإنهم سيقومون في أذهانهم بتحويل الحوار إلى العامية المناسبة، المصطلح عليها. وهناك الكثير مما يقال بالنسبة لهذه الحجة، وأتذكر بوضوح بالغ نفاد صبري حيال رواية من تأليف الكاتب العراقي الموهوب فؤاد التكرلي، التي كان الحوار فيها بالعامية العراقية، وقد وجدت نفسي عاجزاً عن إكمال قراءتها بسبب افتقاري إلى معرفة هذه اللهجة. وعلى الرغم من ذلك، فإنني مقتنع بأن الرواية، بالنسبة للقارئ العراقي، قد اكتسبت شيئاً من خلال كتابة الحوار بالعامية.

عودة إلى تيمور، فإنني بعد أن نشرت قصة أو قصتين من تأليفه في مجلات بانجلترا، قررت تصفح كل إنتاجه من القصص القصيرة واختيار عدد يكفي لتقديم مجلد صغير. وكنت أعرف أنه لا مجال للعثور على ناشر لمثل هذا الكتاب - لم تكن الجامعة الأميركية بالقاهرة قد بدأت بعد أنشطتها في مجال النشر - ولهذا السبب كنت مضطراً لنشره على نفقتي، تحت اسم ناشر هو «مكتبة النهضة». وقبل المضي به إلى الطابع قررت اللجوء إلى من يلقي نظرة على المخطوط. ومسألة إعطاء مخطوط ما لشخص للتعقيب عليه هي، بالطبع، مسألة صعبة بالنسبة للشخص الذي تتم استشارته.و من الواضح أن كل ما يريده الكاتب حقاً هو أن يُعاد المخطوط إليه، بعد

أيام قلائل، مصحوباً ببعض عبارات التهنئة. ولحسن طالعي فإنني أعطيت المخطوط إلى زميل لي في المعهد، وهو رجل كان قد قام بنشر كتب عدة، وكنت أقدّر رأيه، وبينما أحسست بالضيق في بداية الأمر إزاء صراحته، إلا أنه على الرغم من ذلك أعطاني درساً قيماً في الترجمة، فلدى إعادة مخطوط القصص القصيرة إليَّ، طرح بعض الملاحظات التي تتضمن مجاملة بالنسبة للقصص، لكنه أضاف عقب ذلك إن الترجمة نفسها لم تكن في بعض الحالات مصاغة بلغة انجليزية سليمة تماماً. ساورني شعور بالصدمة، فطلبت منه أن يضرب لي بعض الأمثلة، وهو الأمر الذي قام به. قلت محتجاً: «ولكن ذلك هو ما يقوله النص العربي»، فرد بقوله: «ليس يعنيني ما يقوله النص العربي. إنني باعتباري قارئاً يتصادف أنني لا أعرف كلمة عربية واحدة، وكل ما يعنيني هو أن يكون لديَّ نص جيد باللغة الانجليزية، ففي نهاية المطاف تعد الترجمة فناً، ودور المترجم هو القيام باستيعاب النص الأصلي، هضمه تماماً، ثم تقديمه في إهاب لغة انجليزية مقبولة. والأمر كذلك بصفة خاصة حيثما كانت اللغة التي تترجم عنها مختلفة للغاية عن الانجليزية».

تقبلت كلماته، إلى حد الإيمان بها، وراجعت المخطوط كله مجدداً، قبل المضي به إلى الطابع. وكتب عبدالرحمن باشا عزام ، الأمين العام لجامعة الدول العربية في ذلك الوقت، مقدمة قصيرة للكتاب. وأعتقد أن هذا الكتاب، الذي صدر في ١٩٤٧، هو أول مجلد يضم قصصاً عربية قصيرة ينشر في ترجمة انجليزية.

عندما أهديت بعض النسخ إلى محمود تيمور، سألني، بكرمه المعهود، عن التكلفة التي تكبدتها لطباعته وكم أتوقع بالفعل الحصول عليه عندما تباع كل النسخ، وحرَّر لي شيكاً بالمبلغ الإجمالي، مشيراً إلى أن بوسعه الانتظار إلى أن تباع نسخ الطبعة كلها. ولم تكن هناك إشارة في السابق إلى أنني إذا أنجزت مجلداً من قصصه فإنه سيدفع التكاليف.

٤

يعد الكاتب المسرحي توفيق الحكيم، بالطبع، أحد قادة النهضة الأدبية في مصر. وكان له مكتب في صحيفة «الأهرام»، ولكنني كنت في بعض الأحيان أجلس معه صباحاً في أحد الأماكن التي يؤثر التردد عليها، وهو الرصيف الواقع خارج مقهى ريتز في نهاية شارع قصر النيل، قبالة مبنى البنك الأهلي وكنت قد قرأت كتابه «يوميات نائب في الأرياف»، وساورني الشعور بأنه سيكون كتاباً طريفاً في ترجمته، وسيشكل اختباراً لقدراتي في الترجمة، خاصة أن جانباً كبيراً من الحوار كُتب بالعامية. غير أنني عندما فاتحته في هذا الشأن، أبلغني بأنه مما يؤسف له أنه كان قد قام خلال الحرب بالسماح بالترجمة لأبا إيبان، الذي كان في ذلك الوقت ضابطاً من ضباط المخابرات البريطانيين، وقدَّر له في وقت لاحق أن يصبح وزيراً لخارجية إسرائيل. وفيما بعد ظهرت الترجمة تحت عنوان «متاهة العدالة» ولاتزال متاحة للقراء في طبعات متداولة.

بعد أن قرأت هذه الرواية مترجمة، واستمتعت بها، قررت تقديمها إلى جمهور قراء الانجليزية من خلال حديث عبر هيئة الإذاعة المصرية، التي تبث برامج اللغة الانجليزية (كنت مساهماً منتظماً في هذه البرامج، وترجمت للقائمين عليها عدداً من القصص القصيرة لكتاب ذلك الوقت، ونشر بعضها في مجلة «كايرو كولينج»). غير أنني بعد

كتابة ما مفاده أن هذه الرواية صوَّرت الفقر الذي عاش في ظله الكثير من الفلاحين المصريين، أدهشني أن أجد كلماتي منشورة في جريدة «الزمان» المصرية، حيث اتهمت بالانتقاص من شأن مصر. ولدى ذهابي في صبيحة أحد الأيام إلى الجامعة قوبلت مقابلة حماسية من طلابي، الذين قالوا: «لقد اقتضى الأمر وجودك، أنت الأجنبي، لتملك ناصية الشجاعة لقول مثل هذه الأشياء». ولما لم أكن من الحريصين على متابعة الصحف، فقد بادرت بالتساؤل: «أي أشياء؟». وكان مثيراً للسخرية أن أُتهم بانتقاد مصر، في غمار ذلك القول، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى أننا كنا نعيش في زمن الرقابة الحكومية، وقد أجاز الرقيب ما كتبته للإذاعة، بالطبع، وتم إبلاغي فيما بعد بأن الملك فاروق نفسه قد استبدَّ به الحنق حيال هذا الأمر، إلى حد أن خطوات كانت بسبيلها إلي أن تتخذ لإعلاني شخصاً غير مرغوب في وجوده في مصر. وقد كان هذا آخر ما أريده، فمضيت أقدح زناد فكري لتبين من عساه، من بين معارفي، يمكنه مساعدتي في الخروج من هذه الورطة، وفي التو قفز إلى ذهني اسم يحيى حقي، الكاتب والدبلوماسي الذي ربطتني به أواصر الصداقة، فزرته في مقر وزارة الخارجية، وبادر بالاتصال هاتفياً بإدجار جلاد، مالك صحيفة «الزمان» ورئيس تحريرها، الذي وافق على مقابلتي. ومضيت للقائه في حالة من الغضب الشديد، وهددته برفع دعوى قضائية على صحيفته، إذا لم ينشر في التو تفنيداً لما نشرته مع اعتذار عن النشر. ولما كان رجلاً يفوقني حكمة، فقد تلقاني باسماً، وأبلغني بأن الصحيفة لم تنشر تفنيدات من هذا النوع قط، ولكنه وعد بأنه في وقت لاحق سينشر مادة تتضمن إشادة بي وبخدماتي للأدب العربي، وهو ما قام به فيما بعد.

هكذا انتهى احتكاكي الثاني مع رجال السلطة. وكان الاحتكاك الأول قد طرأ من خلال الصفحة الأسبوعية التي كنت أكتبها لمجلة «سفنكس». وقد تألفت هذه الصفحة من مواد عدة، تدور بصفة أساسية حول شخصيات مصرية، وذلك في محاولة لإطلاع القارئ الانجليزي لهذه المطبوعة، التي تصدر على غرار «تاتلر» على الحقيقة القائلة إن القاهرة بها أيضاً شخصيات مصرية مثيرة للاهتمام، وإنها لا تسكنها فقط زمرة صغيرة من الانجليز الذين يقيمون حفلات شاي بصورة منتظمة. وفي أحد الأسابيع ذكرت أن بعض أعضاء الجالية الانجليزية قد دعوا راقصة مصرية لتقديم الرقص

الشرقي. وتعرضت للهزء والسخرية، وأحست بالإهانة، عندما سعى العديد من الرجال في صفوف الجمهور لتقليدها. وكتبت أقول إننا نحن معشر الانجليز ضيوف في بلد أجنبي، وإننا ينبغي أن نحترم كل جوانب الحياة من حولنا. ويبدو أن هذا أثار غضب السفير البريطاني. ففي وقت مبكر من صبيحة أحد الأيام ألفيت على بابي أحد رجال الشرطة العسكرية. وعندما طلب مني مرافقته إلى السفارة، أبلغته بأنني لا أعتزم القيام بذلك، لكنني غيّرت رأيي، عندما أشار إلى أن السفير نفسه مستاء من شيء كنت قد كتبته، وأن لديه سلطة اعادتي إلى انجلترا على متن طائرة. وأقلتني سيارة جيب إلى السفارة، التي دخلتها آنذاك للمرة الأولى، حيث قابلني من يدعى ميجورسانسوم، الذي فهمت لاحقاً أنه شخص يتمتع ببعض النفوذ في البلاد، والذي رسم صورة كئيبة لورطتي، فأشرت إلى أن الكلمات التي أثارت الضيق كانت الرقابة قد سمحت بها جميعها، لكن ذلك لم يكن أمراً كافياً بالنسبة له، وأبلغني بأنه ربما يمكن حسم الأمر من خلال قيامي بكتابه خطاب اعتذار للسفير. سألته عما إذا كان يمكن أن يكون من رقة الحاشية بحيث يملي عليَّ مثل هذا الخطاب، حيث لم تكن لديَّ فكرة عن نوعية الوثيقة التي يمكن أن ترضي السفير. وفي التو حررت هناك بالكتابة العادية الخطاب الذي أملاه عليَّ ميجور سانسوم. ولم يطرأ أي جديد عقب ذلك على هذا الحدث. غير أنه أوضح لي كيف أن ما اعتبرته تعليقاً عادياً في صحيفة كان يمكن أن يتسبب في إلحاق ضرر جسيم بي.

أحرز توفيق الحكيم على نحو ما صيتاً قوامه اتسامه بالبخل. ولم تتح لي قط المناسبة التي يمكن أن تضع ذلك موضع الاختبار، ولكنه كان موضوعاً للتندر على الدوام بين معارفه. وغالباً ما كنت أزوره في مكتبه بصحيفة «الأهرام»، حيث برهن على الدوام على كرم وفادته. ولما كان قد أنجز دراساته العليا في فرنسا، فإنه كان يتحدث الفرنسية بطلاقة، بالطبع، وكان ضليعاً في الأدب الفرنسي. وذات يوم عندما كنت أزوره في «الأهرام»، فتح درج مكتبه، وأخرج، بابتهاج ظاهر، رسالة من المستعرب الفرنسي الكبير لويس ماسينيون، الذي اشتهر بدراسته للصوفي والشهيد الحلاج. ودهشت لرؤية الرسالة مكتوبة بالعربية ومتضمنة عدداً من الأخطاء في النحو، وكانت هذه الأخطاء هي التي أراد توفيق الحكيم اطلاعي عليها.

ورحت أسائل نفسي: لماذا خاطر ما سينيون بالكتابة باللغة العربية إلى شخص كان يعلم تمام العلم أن بمقدوره قراءة رسالة بالفرنسية؟ وقد حرصت أنا نفسي على تجنب الكتابة بالعربية، ما لم أكن مضطراً للقيام بذلك، حيث كنت على وعي تام بالابتهاج الذي يثيره أي خطأ قد أقع فيه.

اشتهر توفيق الحكيم في المقام الأول، بالطبع، بكونه كاتباً مسرحيا. ولما كنت قد وجدت الرواية التي رغبت في الاشتغال عليها مترجمة بالفعل إلى الانجليزية، فقد انطلقت في ترجمة العديد من المسرحيات التي كتبها، وذلك على الرغم من إدراكي أن الطلب ليس كبيراً على الكتب التي تضم المسرحيات. وكانت أول مسرحية تُنشر من هذه المسرحيات هي عمل ينتمي إلى مسرحياته الأخيرة، وهي مسرحية من مسرح العبث بعنوان «ياطالع الشجرة»، نشرت في طبعة ذات غلاف ورقي ضمن اصدارات دار نشر جامعة أكسفورد. وكان الرأي المحلي بشأنها منقسماً، وذلك على الرغم من أنني أرى اليوم، بعد سنوات عدة من كتابتها، أنها لاتزال تعرض على خشبة المسرح في القاهرة، ثم نشرت أربع مسرحيات أخرى – هي مسرحيتان طويلتان ومسرحيتان من ذوات الفصل الواحد – في سلسلة «مؤلفون عرب» الصادرة عن دار هاينمان، تحت عنوان «مصير صرصار ومسرحيات أخرى عن الحرية». وأنتجت مسرحية «السلطان الحائر» الطويلة ضمن برامج الخدمة الوطنية لهيئة الإذاعة البريطانية، وشقت طريقها مؤخراً إلى إحدى طبعات «روائع العالم» من إصدار دار نورتون. وشأن كل ترجماتي من الأدب العربي الحديث، فإن أياً من هذه الكتب لم يدَّر مالاً يُذكر، سواء عليَّ أو على المؤلف، وكان الترتيب الذي اعتمدته دار هاينمان هو اقتسام المؤلف والمترجم لعائدات حقوق الملكية الفكرية مناصفة، وفيما يتعلق بموضوع المكافآت المالية أتذكر قيام توفيق الحكيم، في إحدى زياراتي لمكتبه، بفتح درج مكتبه وإخراج شيك لوَّح به أمامي. وكان من دار هاينمان، ناشرة سلسلة «مؤلفون عرب» بقيمة إجمالية قدرها ثلاثة جنيهات إسترلينية وستون بنساً، هي عوائد الملكية الفكرية عن ستة أشهر. قال مازحاً: «سيكون عاراً حقيقياً صرف هذا الشيك. أعتقد أنني سأتخذ له اطاراً لأتمكن من تعليقه».

بعد سنوات عديدة – حوالي نصف قرن – دُعيت لإلقاء محاضرة في جامعة بسوريا. وقبل خروجي لتوجيه الحديث إلى جمهوري، سألني مضيفي، رئيس قسم

اللغة الانجليزية، عن الموضوع الذي سأتناوله بالحديث، وأعتقد أنه قد أزعجه أنني لم أحمل معي رزمة من الأوراق المليئة بالكتابة ذات السطور المتقاربة التي سأقرأ منها، وهو أمر أجده مضجراً على نحو معذب، عندماً أجلس في صفوف الجمهور. وأبلغته أن موضوعي العام هو شيء من قبيل أن «الترجمة فن». فبدا عليه الكدر في التو، وقال: «إننا هنا نعلّم أن الترجمة علم». وبدا جلياً أننا على طرفي نقيض، حتى قبل أن أبدأ محاضرتي. أبديت احتجاجي بالقول: «ولكنه يقيناً يتغير معنى الكلمة أو العبارة بحسب السياق». فطرح الاستفسار بإصرار: «ما الذي تقصده؟». قلبت الأمر في ذهني، وخرجت بالقول: «على سبيل المثال، فإنه في اللغة العربية ما تجلس عليه هو كرسي، وهذا يترجم عادة بكلمة .(Chair) ولكن الله عزوجل، كما ذكر في القرآن الكريم، لا يستوي على كرسي، وإنما على عرش، وهكذا فإن آية الكرسي ينبغي أن تترجم

The Verse Of the Throne وليس The Verse of the Chair. كذلك فإن كلمة كرسي يتصادف أنها تعني القاعدة في (الجوزة) حيث يضع مدخنو الحشيش التعميرة» تطلع الرجل إليَّ غير مصدق ما يسمع، وقد بدا جلياً أنه يتساءل أي نوع غريب من المستشرقين أنا. ثم قبيل اتباعي إياه إلى قاعة المحاضرات سألني في أي جامعة انجليزية أقوم بالتدريس. وجوبهت بنظرة عدم تصديق أخرى، عندما أجبت بأنني أقيم في مصر، ولا أدُرِّس في جامعة.

بعد إنهائي محاضرتي الموجزة (باللغة الانجليزية)، فتحت المجال أمام الأسئلة. ومضى أحد أعضاء هيئة التدريس يوبخني لقيامي بترجمة مسرحية توفيق الحكيم «السلطان الحائر» إلى The Sultan's Dilemma بدلاً من The Perplexed Sultan ولفت نظري إلى أن العنوان في اللغة العربية يضم اسماً وصفة، وأنني كان ينبغي أن أترجمهما على النحو ذاته. ودافعت عن ترجمتي بالتساؤل: «أليس العنوان The Sultan's Dilemma يعطي في آن المعنى ويطرح عنواناً أكثر جاذبية؟». وقد ألفيت أن جمهوري من الطلاب قد بدا أنه في صفي، وشعرت بأنه قد ناله ما يكفي من تعليمه أن الترجمة علم! كما ألفيت نفسي في جدال محتدم مع أستاذ آخر، وبخني بعنف لأنني ذكرت أن الشاعر الصوفي العظيم جلال الدين الرومي قد كتب بالفارسية.

وأشار إلى أن الشاعر كان قد عاش في قونيه بتركيا، وأنه حتى اليوم لايزال الدراويش المشهورون يؤدون رقصتهم هناك. أجبت عن ذلك بأنه بينما من المؤكد أن جلال الدين الرومي قد عاش في قونيه، إلا أنه من المؤكد كذلك أنه كتب بالفارسية، فقد درست تلك اللغة في الجامعة، وقرأت شعر ذلك الرجل العظيم في الأصل الفارسي. وبينما أمقت التقليل من شأن أستاذ أمام طلابه، الذين كانوا بحلول ذلك الوقت يستخدمون اللغة العربية في تجاذبهم أطراف الحديث معي، فإنني لم يكن أمامي من خيار إلا أن أدافع عن نفسي. وكان من المفترض أن أكون موجوداً في لقاء ثان بعد الظهر بالجامعة، ولكن عند نهاية الجلسة أبلغني رئيس القسم بأن طارئاً قد طرأ فجعل من المستحيل على الطلبة حضور ذلك اللقاء الثاني.

٥

تعارفنا أنا ونجيب محفوظ خلال الوقت الذي أمضيته في القاهرة بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٩. وكنا نلتقي في إحدى المقاهي التي يرتادها، وترجمت له في وقت مبكر قصة من مجموعته الأولى «همس الجنون» ذاتها، لتبث من البرنامج الانجليزي بإذاعة القاهرة.

في حوالي عام ١٩٤٧، قرأت روايته «زقاق المدق»، وأحسست في التو أنه لم يُكتب شيء مثلها باللغة العربية. وأتذكر الذهاب إلى سهرات طه حسين الأسبوعية مع لويس عوض والإتيان على ذكر هذا الكتاب، لأجد أنه ما من أحد هناك قد سمع بنجيب محفوظ أو بالرواية. وقد ذكّرتني فاطمة موسى، وهي إحدى ناقدات مصر البارزات - ووالدة الروائية أهداف سويف - ذكّرتني مؤخراً كيف أنني عندما كانت إحدى طالباتي في جامعة فؤاد الأول تحدثت بحماس عن نجيب محفوظ وعن «زقاق المدق» خلال الدرس. وعلى الرغم من أنني كانت لديَّ تحفظات معينة على هذه الرواية، فقد بدأت في ترجمتها، وانتهيت من ترجمة ثلثها تقريباً قبل أن أتوقف، حيث ساورني الشعور بأنني لن أجد ناشراً لها أبداً. غير أن المستعرب الكندي تريفور لو جاسيك Trevor Le Gassick ترجم هذا الكتاب، ونشرترجمته في بيروت.

إنني أعرف أن نجيب محفوظ قد علّق الآمال على أنني، كما ترجمت بعض قصصه القصيرة، سأقوم في وقت لاحق بترجمة إحدى رواياته، حيث أنه كان يعرف إلى أي

مدى بعيد بلغ إعجابي بكتاباته. وكنا نلتقي في إحدى المقاهي التي يرتادها، وغالباً ما كنا نناقش أعماله. لم أتخيل قط أنني أخاطب أديباً سيحرز في المستقبل جائزة نوبل في الأدب، فكنت أنتقد رواياته، مشدَّداً، على سبيل المثال، على أن رواية مثل «اللص والكلاب» تفتقر إلى تلك الدرجة من الجنس والعنف كليهما، التي من شأن القراء بالانجليزية أن يتوقعوها من رواية بمثل هذه الحبكة. إنني أعتقد بأنه خزى محزن، فيما يتعلق بصناعة النشر البريطانية، أنه لو لم يحصل نجيب محفوظ على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٨ لما وجد ناشراً ينتمي إلى تيار النشر الرئيسي لأعماله في ترجمة إلى الانجليزية.

في إحدى زياراتي المتتابعة للقاهرة، عندما كنت أقيم في مكان آخر من العالم العربي في ثمانينيات القرن العشرين، علمت أن نجيب محفوظ وقَّع عقداً مع مارك لينز Mark Linz مدير دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة، فيما يتعلق بحقوق ترجمة أعماله إلى اللغة الانجليزية. وفي المرة التالية التي التقيت خلالها بنجيب في المقهى سألته عن هذا، وأعربت عن الأمل في أن يكون قد توصل إلى اتفاق جيد مع (دار النشر)، فأبلغني بأنه، في حقيقة الأمر، قد عهد إليها بحقوق ترجمة أعماله من دون أي مدفوعات مسبقة، وانه قد أدرج كذلك في العقد حقوق الترجمة إلى كل اللغات الأخري. فصعقت حيال ما سمعته، وأفصحت عما أشعر به. سألني بابتسامة: «وكم من كتبي قمت أنت بنشرها؟ على الأقل بهذه الطريقة سيترجم بعض أعمالي وينشر بالانجليزية ولغات أخرى». ولم يكن لديَّ رد على هذا، وقد تجلت حكمته في التوصل إلى اتفاق بشأن الحقوق باللغات الأجنبية، عندما فاز، على غير انتظار، بجائزة نوبل، وهو ما يرجع في المقام الأول إلى ظهور تسع من رواياته في ترجمات من خلال دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة، بينما ظهر عمل أو عملان آخران له في سلسلة «مؤلفون عرب» التي أطلقتها مع الناشر البريطاني «هاينمان إديوكيشنال».

تعد قصة نجيب محفوظ مع جائزة نوبل قصة مثيرة للاهتمام، فخلال إحدى زياراتي للقاهرة، أثناء سنوات إقامتي في فرنسا أو اسبانيا، تلقيت اتصالاً هاتفياً من صديق لي مفاده أن زوجة السفير الفرنسي لدى تونس، وهي سيدة سويدية، موجودة في القاهرة، وترغب في مقابلتي. والتقينا في مكان يعد اختياره بعيد

الاحتمال وهو فندق كليوباترا، وهناك أبلغتني بأن لجنة الجائزة تبحث إمكانية فوز كاتب عربي بها. وكانت معها قائمة بأسماء المرشحين المحتملين، ومن بينهم الشاعر السوري أدونيس، كاتب القصة القصيرة المصري يوسف إدريس، الكاتب السوداني الطيب صالح ونجيب محفوظ. وسألتني أولاً عما إذا كنت أشعر بأن هناك أي كاتب آخر من العالم العربي يستحق النظر في إمكانية فوزه بالجائزة، وإزاء الشعور بأن القائمة مكتملة ناقشناً مطولاً المزايا النسبية لهؤلاء المرشحين المحتملين. لم يكن بالإمكان وصف أدونيس بأنه شاعر يحظى شعره بالانتشار بين عامة الناس، فضلاً عن كون شعره بعيداً عن مدارك الكثير من القراء. أما يوسف إدريس فإنه على الرغم من التقدير الكبير الذي يحظى به باعتباره النصير الرائد للقصة القصيرة في العالم العربي، إلا أنه لا تتوافر له مواد كافية مترجمة إما إلى الانجليزية أو الفرنسية، وهما اللغتان اللتان يعرفهما أعضاء اللجنة. ولم تكن للطيب صالح في ذلك الوقت أعمال متاحة في الانجليزية أو الفرنسية إلا روايته «موسم الهجرة إلى الشمال»، روايته القصيرة «عرس الزين» وثلاث قصص قصيرة أو أربع، وقد استبعده هذا النتاج المحدود من إمكانية فوزه بالجائزة، ولما كنت مترجمه إلى الانجليزية فإنني كان حرياً بي، بالطبع، أن أبتهج لو أنه حصل عليها. وفي غمار مناقشة مزايا المرشحين المختلفين، بدا جلياً أن نجيب محفوظ هو المرشح المفضل، ليس بسبب النوعية الرفيعة لكتاباته فحسب، وإنما كذلك بسبب العدد غير المألوف من الروايات ومجموعات القصص القصيرة الذي أبدعه. وعلى الرغم من أن اهتمامي قد ثار بفعل النظر في إمكانية منح الجائزة لكاتب عربي، إلا أنني لم أشغل نفسي أكثر من هذا بلقاء السيدة السويدية، ودهشت على نحو ما ذُكر أن محفوظ نفسه قد دهش عندما تم إبلاغه لأول مرة بأنه تقرر منحه الجائزة.

عندما كنت أقيم في بيروت بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٤، تم الاتصال بي للانضمام إلى الفريق الذي يعكف على ترجمة روايات نجيب محفوظ إلى اللغة الانجليزية لتنشرها دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة حيث ساد الشعور بأن معظم المترجمين ليست لديهم معرفة جيدة بالقدر الكافي بكل من اللغتين العربية والانجليزية، وانه لهذا السبب ينبغي أن يعهد لواحد ممن تعد العربية لغتهم الأم بإنجاز ترجمة أولية، ثم تسلم الترجمة

إلى شخص أو أكثر للقيام بـ «صقل» النص الأولي. وقد رفضت أن أكون عضواً في هذا الفريق، وأعربت عن اعتقادي بأنه تماماً كما أنه لا يمكن عادة لكتاب أن يكون من تأليف لجنة أو العديد من الأشخاص فكذلك الترجمة ينبغي أن تسند إلى شخص واحد. ومن شأن إلقاء نظرة، على سبيل المثال، على صفحة العنوان في رواية نجيب محفوظ «ميرامار» أن توضح أن ما لا يقل عن أربعة أشخاص قد ساهموا في ترجمتها، وهو ما لا يعني القول إن النتيجة النهائية ليست مقبولة بصورة تامة. وبينما لم يكن مشروع دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة لترجمة أعمال نجيب محفوظ، في رأيي، الطريقة المثلى للترجمة، إلا أنه أنتج بالفعل عدداً من الترجمات لرواياته، وبفضل توافر كيان يُعتد به من حيث الحجم من أعماله باللغة الانجليزية، فاز بجائزة نوبل.

كنت مسؤولاً عن توصية المترجم فيليب ستيورارت Philip Stewart بترجمة رواية «أولاد حارتنا» المثيرة للجدل. وكان يرغب في العثور على عمل يمكنه أن يترجمه، فيما أظن، للحصول على درجة الماجستير من جامعة أكسفورد، وقد أبلغته أنه إذا قام بترجمة الرواية، فإنني سأدرجها في سلسلة «مؤلفون عرب»، حيث نُشرت تحت عنوان «أبناء جبلاوي». ولم أدرك أن الرواية التي أوصيت بترجمتها ستصبح، في وقت لاحق، موضوعاً لضجة هائلة، وستؤدي إلى محاولة لاغتيال المؤلف. وفي السابق، عندما كانت الرواية تُنشر في صورة حلقات في صحيفة «الأهرام»، تعرضت الصحيفة للضغط لمنع نشر باقي الكتاب، الذي ذهبت دوائر دينية إلى أنه يتضمن تجديفاً. وفي الوقت نفسه، طلبت السلطات من المؤلف أن يفسِّر ما يدور الكتاب حوله ومن الذين تمثلهم الشخصيات المختلفة المقيمة بالحارة في حقيقة الأمر. وقد تصادف أنني كنت في إحدى زياراتي الدورية للقاهرة، في ذلك الوقت، وأبلغني نجيب محفوظ بالورطة التي وجد نفسه فيها، فقلت إن عليه أن يتمسك بموقفه، وأن يذكر أنه ليس من شأن المؤلف أن يبدأ بتفسير أعماله، وأن عليه أن يرفض الرد على أي سؤال قد يعرضه للخطر مع الدوائر المعنية في الأزهر. غير أنه أصبح معروفاً للكافة أن «الأهرام» أوقفت نشر الرواية، وأن الكتاب لم يعد متاحاً في مصر (وذلك على الرغم من أن نسخة من طبعة صادرة في بيروت يمكن على الدوام شراؤها من إحدى المكتبات الأرفع مستوى الموجودة في قلب القاهرة). وقد حُظرت الطبعة المترجمة إلى الانجليزية كذلك في

مصر، وبلغ الأمر ذروته في عام ١٩٩٤ بعد ما يزيد عن ثلاثين عاماً من نشر الكتاب في حلقات بصحيفة «الأهرام» عندما قام أحد المتطرفين، اعتقاداً منه بأن الكتاب يتضمن تجديفاً (على الرغم من أنه قد قيل إنه لم يقرأه قط) بمهاجمة الكاتب وإصابته بجراح بليغة من خلال طعنه في رقبته.

عقب فوز محفوظ بجائزة نوبل، وحينما تقرر اصدار طبعة موحدة الاخراج الفني لمعظم أعماله، دُعي فيليب ستيورات لإدراج ترجمته في الترجمات الرسمية التي تقدمها دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة ودار دوبلداي للنشر في أميركا، ولكنه بعد أن رأى أن مترجمي الكتاب الآخرين قد تعرضوا للهجوم عليهم، قرَّر السماح لمترجم آخر بانجاز ترجمة رسمية جديدة إلى الانجليزية لهذه الرواية المثيرة للنزاع. وقد عُرضت هذه المهمة عليَّ، لكنني رفضت القيام بها، وعندئذ عُرضت على المترجم الأميركي بيتر ثرو Peter Theroux شقيق كاتب أدب الرحلات المعروف بول ثرو. وقد نُشرت ترجمته تحت عنوان «أبناء الحارة» في نيويورك في ١٩٩٦، وكذلك مع طبعة دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة المؤلفة من عشرين مجلداً في عيد ميلاد المؤلف التسعين في ٢٠٠١.

٦

قرأت بعض كتابات يحيى حقي، بينما كنت لا أزال أعمل بهيئة الإذاعة البريطانية، ولذا فإنني عندما كنت في القاهرة كان واحداً من الكتاب الذين اتصلت بهم. ولا بد لي من الاعتراف بأنني قد وجدته في ذلك الوقت كاتباً صعباً، يهتم كثيراً بالجوانب الأكثر دقة في اللغة. وبعد وقت قصير من وصولي إلى القاهرة، قمت بترجمة قصة قصيرة له بعنوان «قصة في عرضحال» ونشرتها محلياً، ثم ترجمت قصة «أم العواجز»، التي نُشر أصلها العربي، بحسب ما أتذكر، للمرة الأولى في مجلة «الكاتب المصري» التي كان طه حسين يتولى رئاسة تحريرها، وكانت هذه القصة هي التي اخترتها لتمثل يحيى حقي في مجلدي الأول الذي أصدرته متضمناً ترجمة لقصص قصيرة عربية.وأتذكر أنه، في وقت لاحق، اقترح أن أقوم بترجمة قصة قصيرة له بعنوان «السلم اللولبي»، وهي تتناول السلم الخلفي لبناية كبيرة تضم شققاً سكنية، والخدم الذين يعملون في هذه الشقق، والحرفيين المتعددين الذين يكدحون صاعدين هابطين هذا السلم، في غمار أدائهم للمهام التي تسند إليهم. وكانت قصة طويلة على نحو ملحوظ، وشكّل مزيجه الثري من الفصحى والعامية عدداً من الصعوبات بالنسبة لي. وأتذكر أننا أمضينا ساعات عدة معاً نتصفح ترجمتي، وفي مكان ما ضمن أوراقي كلها، في درج مكتب أو في حقيبة

عتيقة، توجد ترجمتي غير المنشورة لهذه القصة (ما كنت لأتخلص منها) مع تفسيراته واقتراحاته الغزيرة. وعبثاً حاولت العثور عليها، عندما طلبت مني دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة انجاز كتاب يضم قصصاً ليحيى حقي.

من بين كل الكتاب الذين تعرفت بهم في القاهرة خلال تلك السنوات المبكرة، كان يحيى حقي واحداً من القلائل الذين أصبحوا أصدقاء شخصيين لي حقاً. وكنا نلتقي في العديد من المقاهي، وكنا في بعض الأحيان نتناول طعام الغداء معاً. وكان يكبرني في السن، وشعرت بأنني يمكنني الاعتماد عليه، بحسباني أجنبياً، إذا قُدِّر لي الاحتياج للعون. وقد حدث هذا في حقيقة الأمر، على نحو ما أوردته في فصل سابق من هذا الكتاب، وقد غادرت القاهرة في ١٩٤٩، ويبدو أن يحيى حقي قد أُلحق في حوالي ذلك الوقت بالسفارة المصرية في باريس، ذلك أنني بينما كنت في طهران، وغالباً ما كان يساورني الحنين إلى القاهرة التي ألفتها، تلقيت رسالة منه مكتوبة على ورق السفارة، وكانت حافلة بالدفء والحس الرقيق بالمرح، اللذين كانا من سماته التي لا تفارقه، وقد كُتبت بمزيج من الفصحى والعامية يوحي براحة البال. ولما كنت غير منظم في حياتي بصفة عامة، فإنني لا احتفظ بالرسائل كقاعدة عامة أتبعها، وذلك على الرغم من أنني يسعدني أنني لا أزال احتفظ بهذه الرسالة.

أفضيت ليحيى بطموحي إلى تقديم مجلد من القصص القصيرة العربية من جميع أنحاء العالم العربي والعثور على ناشر له في بريطانيا. وسيكون هذا المجلد أول إصدار يحاول تقديم الأدب العربي الحديث للغرب. وفي السنوات التالية كنت أقيم في معظم الأحيان خارج مصر، لكنني كنت أزور القاهرة بصورة منتظمة. وفي كل زيارة كنت ألتقي بيحيى حقي، فيبادر باسماً إلى سؤالي عن حال مجموعتي من القصص القصيرة العربية. وكنا معاً نعرف في قرارة نفسينا أن هذا المشروع ربما كان حلماً مجلقاً، فحتى إذا وجدت المادة الضرورية فكيف سأجد ناشراً لمثل هذا الكتاب الغريب؟ ولكن جاء اليوم الذي انتهى فيه هذا المجلد، وأتاح حسن الطالع وجود صديق في لندن (كان له أصدقاء لهم نفوذ) والذي كان يعمل لدى دار نشر جامعة أكسفورد وكان معنى ذلك أن الكتاب سيتم النظر في أمره بصورة جدية على الأقل. وفي نهاية المطاف، تم قبول نشر مجلد القصص كعمل بحثي أكثر مما تم قبوله لأي مزايا أدبية ربما يتمتع

بها. وكان هناك أيضاً شرط واحد، وهو أن يقوم باحث متميز بكتابة مقدمة له. وبينما كنت معروفاً لدى بروفسور أربري Arberry الذي كان في ذلك الوقت يشغل كرسي اللغة العربية بجامعة كامبردج - كنت ذات مرة قد وضعت تسجيلا لحديث معه في موضع ما ونسيت أين وضعته عندما كنت أعمل في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية - وتصادف أنني عرفت أنه لا ينظر إليَّ باعتباري شخصاً جاداً. وعلى الرغم من ذلك، فقد كتبت إليه أسأله عما إذا كان يمكن أن يتفضل بكتابة المقدمة المطلوبة. وقد وافق على القيام بهذا، وذلك على الرغم من أنه كان مريضاً آنذاك، وكذلك لم تكن حركة الأدب الحديث بالموضوع الذي كان ملماً به بصفة خاصة. ولكن من الذي كان ملماً بهذا الموضوع في ذلك الوقت؟

هكذا كان بوسعي، في زيارتي التالية للقاهرة، إبلاغ يحيى حقي بأن مجلداً يحمل عنوان «القصة القصيرة العربية الحديثة» سيصدر عن ناشر رفيع المكانة هي دار نشر جامعة أكسفورد. وقد تم إصداره بغلاف غير مألوف من تصميم صديق لي، هو الفنان السوداني إبراهيم الصلحي، ويتألف هذا الغلاف من أسماء الكتاب الذين يضم المجلد أعمالهم مكتوبة بالخط العربي على شكل حصان. غير أن العام الذي صدر فيه المجلد كان ١٩٦٧، ولم يكن بأفضل الأعوام التي يمكن أن يُقدم فيها مجلد يضم قصصاً قصيرة عربية، ورفضت مطبوعات انجليزية عدة تقديم عروض للكتاب. ولم يساعد في تحسين الموقف أنه ما من حكومة أو مؤسسة عربية واحدة قامت بشراء نسخة واحدة من الكتاب. وعجزت دار نشر جامعة أكسفورد عن بيع الطبعة المحدودة للغاية التي أصدرتها. وفي وقت لاحق، بيعت الطبعة ذات الغلاف الورقي بكاملها في لبنان. وقد رأيت مؤخراً فحسب أن أكسفورد قد أصدرت مجلداً يضم قصصاً يابانية قصيرة، ولذا كتبت للمسؤولين بها، واقترحت عليهم أنهم ينبغي، بعد أن كانوا أول من أصدر مجلداً من القصص القصيرة المترجمة عن العربية على الإطلاق، أن يكونوا، بعد مرور هذا الوقت الطويل، الناشرين الذين يصدرون مجلداً اضافياً يضم أحدث القصص القصيرة العربية، فردوا بأن مجموعات القصص القصيرة يصعب بيعها، وبصفة خاصة المجموعات العربية!

حظي مجلد أكسفورد بعمر إضافي عندما أعيد إصداره في طبعة ذات غلاف

ورقي في سلسلة «مؤلفون عرب» التي أطلقتها بدعوة من جيمس كاري James Currey في دار هاينمان.و كان جيمس محرر سلسلة "كتاب أفارقة" التي لاتزال تحظى بالرواج. وكنت قد تمكنت من أن أدرج في هذه السلسلة عدداً من الكتاب العرب الذين هم كتاب أفارقة، مثل نجيب محفوظ، توفيق الحكيم والطيب صالح. وقد سألت جيمس: ماذا عن كتاب من فلسطين أو العراق على سبيل المثال؟ هكذا تم الاتفاق، شريطة أن أعمل مستشاراً للسلسلة (لم يكن هناك أحد في هاينمان لديه أي فكرة عن الأدب العربي الحديث) على البدء في إصدار سلسلة جديدة تحمل اسم «مؤلفون عرب». وقد كُرست هذه السلسلة بصورة حصرية للترجمات عن اللغة العربية، واستمرت سنوات عدة، وأصدرت أربعة وعشرين عملاً. وأعتقد أن هذه السلسلة لعبت دوراً مهماً في تقديم أفضل نتاجات النهضة الأدبية العربية لجمهور القراء بالانجليزية، وفي الوقت نفسه فإن هذه الأعمال أصدرتها في الولايات المتحدة دار ثري كونتننتز.

في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، أفضى إليَّ جيمس كاري وكيث سامبروك Keith Sambrook وكلاهما مديرا (هاينمان إديوكيشنال) بأن هناك عملية إدماج لهاينمان، وأن المدققين الجدد قد وجدوا أن سلسلة "مؤلفون عرب" لا تدِّر ربحاً. وينبغي إيضاح أن سلسلة "كتاب أفارقة" كانت تتمتع بالميزة المتمثلة في نشر الكتب الرئيسية المؤلفة أصلاً باللغة الانجليزية، ومن هنا فإنها تتمتع بأسواق في الدول الإفريقية التي تعد اللغة الانجليزية لغة معروفة بها. ومن ناحية أخرى، فإن سلسلة "مؤلفون عرب" لم تكن تنشر إلا كتباً مترجمة عن اللغة العربية، وبالتالي فليست لها سوق في العالم العربي. هكذا فقد تم إبلاغي بأن السلسلة التي كنت قد أطلقتها سيتم إغلاقها – حدث ذلك قبل أشهر من حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل – ما لم يكن بالإمكان العثور على نوع من المساعدة المالية من العالم العربي. ما هي نوعية المبلغ الذي يفكران فيه؟ حسناً، فلنقل إن خمسة آلاف جنيه إسترليني من شأنها أن تساعد في تسيير الأمور. مع ذلك فإن الأمر المحزن هو أنني لم أتمكن من العثور على مبلغ الدعم البسيط هذا للسلسلة من أي مصدر في العالم العربي.

في نهاية المطاف، تم بيع الأعمال التي تضمها سلسلة "مؤلفون عرب" في أواخر

الثمانينيات من القرن الماضي لدار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة. ومن الطبيعي أنني لم أكن سعيداً بأن السلسلة التي أمضيت كل هذا الوقت في بناء صرحها، والتي كانت لي السيطرة الفعلية عليها، قد توقفت، ولكن بعض هذه الأعمال لاتزال ماثلة في قائمة مطبوعات دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة، وتقدم بصورة منتظمة ترجمات جديدة من الأدب العربي الحديث.

راودني على الدوام الشعور بالأسف لأنني لم أترجم المزيد من أعمال يحيى حقي، هكذا فقد سعدت بالاستجابة لاقتراح دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة بإصدار مجلد صغير من أعماله يتألف الجانب الرئيسي فيه من الرواية القصيرة التي أبدعها بعنوان «قنديل أم هاشم». وقد صدر هذا المجلد في ٢٠٠٤ .

كانت المرة الأخيرة التي رأيت فيها يحيى حقي عندما دُعي إلى الجامعة الأميركية بالقاهرة في ١٩٨٧ . وكان إلى حد ما على شيء من الضعف، وأقبل مع زوجته، ولم يلق محاضرة، وإنما اقترح أن يرد على أسئلة الحضور، التي طلب منا أن نكتبها في أوراق، سُلمت إلى من يقرأ الأسئلة المدرجة فيها على يحيى حقي. وقد سألت عن السر في أنه بينما اشتهر المصريون بحسهم بالفكاهة فإن هناك، فيما يبدو، النذر اليسير من الفكاهة في كتابات المؤلفين المصريين. ولم أكن أدري في ذلك الوقت أنه كان قد طرح هذا السؤال في إحدى مقالاته، ولم يجد رداً مناسباً. وسأل أحد الحاضرين عما إذا كان قد اعتقد أنه سيفوز ذات يوم بجائزة نوبل. وقد بدا كما لو كان يفكر في السؤال لثوان قلائل، وبعدها رد بابتسامة غامضة من ابتساماته قائلاً: لا، لم يراوده قط مثل هذا الحلم، حيث أنه يعرف أنه في مكان آخر من القاهرة هناك كاتب آخر أكثر موهبة واجتهاداً منه يعكف على انجاز إبداعه. وعلى الرغم من ذلك فإن يحيى حقي فاز في أواخر عمره بجائزة الملك فيصل، تقديراً للخدمات التي أداها للأدب العربي، مع أن حالته الصحية لم تسمح له بالسفر إلى السعودية لتلقي الجائزة. وفي غضون ذلك فإنه رفض، على نحو ينسجم مع سلوكه بصورة نموذجية، جائزة صدام حسين.

ذات يوم من أيام عام ١٩٩٢، كنت أمضي في طريقي إلى داري في الفيوم، وسمعت عبر الإذاعة بوفاة يحيى حقي عن ٨٧ عاماً. ويبدو أن بعض الناس قادرون على شهود جنازات أصدقائهم من دون أن يتأثروا كثيراً. ولست منهم، ولذا فقد

واصلت المضي في طريقي. غير أنني في كل مرة أمضي إلى مطار القاهرة – وهذا يحدث مرات عدة كل عام – فإنني أمر بشارع الغزالي في مصر الجديدة وأتذكر المضي لتناول طعام الغداء في شقته هناك معه ومع زوجته الفرنسية.

٧

يعد لويس عوض أحد أبرز مثقفي عصره في طلاقة الحركة وتعدد المهارات، وعلى الرغم من أنه كان يكبرني بسنوات عدة، إلا أننا درسنا في كامبردج في وقت واحد. وقد برز من خلفية متواضعة للغاية – ترى هل أنا على حق في القول إن والده كان ناظر محطة في منطقة نائية من البلاد؟ – وقد حصل لويس، الذي عاش في وقت كان الطلاب الموهوبون يبتعثون فيه للدراسة في أوروبا استناداً إلى منح دراسية، على الدكتوراه في الأدب الانجليزي من جامعة كامبردج. وهكذا فإنني عندما وصلت إلى القاهرة للعمل مدرساً للترجمة العربية في المعهد البريطاني، بادرت في التو إلى الاتصال به. وقد استمتعت بصحبته، وغالباً ما كنا نلتقي في جروبي، أو في مقهى جديدة تدعى بمقهى مارلي (لم يعد لها وجود الآن)، حيث كان لويس يجلس بالساعات عاكفاً على إنجاز الترجمات التي تكلفه بها دار النشر الأدبية القوية وذات الخيال المحلق «الكاتب المصري» التي يتولى رئاستها طه حسين، وكانت هذه الدار تصدر كذلك مجلة شهرية باسم «الكاتب المصري» نشرت مقالات بقلم لويس عن الشخصيات الأدبية الحداثية، مثل ت. س.إليوت T.S. Eliot وأتذكر، على سبيل المثال، ترجمته الممتازة لقصيدة «الرجال الجوَّف» كما كتب كذلك مقالات عن وليام فوكنر William Faulkner وصمويل بيكيت Samuel Beckett ومن بين الكتب التي ترجمها «صورة دوريان

جراي» لأوسكار وايلد Oscar Wilde وكان مترجماً من الطراز الأول، حيث كانت لديه معرفة ممتازة، بالطبع، بكل من اللغتين العربية والانجليزية، وقد أُنجزت كتاباته كافة بخط يعكس تدقيقاً شديداً في التفاصيل، ويتميز بدقة الرسوم الهيروغليفية وليس الأسلوب المتصل بصورة طبيعية الذي تتميز به اللغة العربية.

خلال الفترة الباكرة التي أمضيتها في القاهرة، أعطاني لويس مخطوط روايته «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» لقراءته. وقد كتب الرواية بالعامية أولاً، ثم قرَّر كتاباتها بالفصحى، وكانت هذه الأخيرة هي بالفعل الصيغة التي نشرها في ١٩٦٦ في بيروت. وهو يورد في المقدمة أسماء خمسة أشخاص كانوا قد قرأوا الرواية في صورة مخطوط في أواخر الأربعينيات، وكان اسمي من بين هذه الأسماء، كما يذكر أنه بعد سنوات، وعلى وجه التحديد في ١٩٦٥، قرأ المخطوط توفيق الحكيم وحسين فوزي، وكانا كلاهما يعملان في «الأهرام»، شأن لويس نفسه. ويبدو أن توفيق الحكيم كان قد أشار إلى أنه لو أن الرواية كانت قد نُشرت وقت تأليفها في الأربعينيات، لغيرت مسار الرواية العربية. وكان حسين فوزي كذلك شديد الحماس لها. ويذكر لويس في المقدمة أنني كنت قد أعربت عن رغبتي في ترجمة الرواية، وأنه قد طلب مني الانتظار إلى أن تصدر الطبعة العربية. وقد تمثل السبب في أنه لم ينشرها في وقت أكثر تبكيراً في أن الملك فاروق كان لايزال على العرش، ومن المؤكد أن الرواية كانت ستحظر، على نحو ما حدث لـ «المعذبون في الأرض» من تأليف طه حسين. وتتسم رواية «حسن مفتاح»، وهي عمل غير مألوف، بمناخ دستويفسكي من الكآبة يختلط بعنصر قاتم من الغرائبية. وبعد ذلك بسنوات، نشرت فصلاً منها في مجلة «أصوات» التي كنت قد أطلقتها في لندن في أوائل الستينيات. ويبدو أن الرواية لم تستقطب إلا اهتماماً محدوداً وقت صدورها، وهي ليست متاحة للقراء الآن. ولئن لم يقدر لها أن تحرز النجاح كرواية، فمن المؤكد أنها كانت عملاً ابداعياً غير مألوف، وبصفة خاصة بالنسبة لعصرها. وعلى الرغم من أنني ترجمت جانباً منها، إلا أنها شكَّلت مهمة جسيمة، من المؤكد أنني لم أكن على استعداد لتكبد عناء القيام بها من دون ضمان العثور علي ناشر. ترى هل غرقت رواية لويس من دون أن تترك وراءها أثراً؟

يتجلى اهتمام لويس بالعامية من خلال تجربته في كتابة سيرة حياة ذاتية عن أيام دراسته في انجلترا بالعامية المصرية بعنوان «مذكرات طالب بعثة»، وكذلك من خلال ديوان له.

إلتقيت، عن طريق لويس، عدداً من الشخصيات المثيرة للاهتمام في القاهرة. وقد تألف ثلاثي لا يفترق مني أنا ولويس وإبراهيم شكر الله. وقد عمل إبراهيم، في إحدى الفترات، في المكتب الصحافي التابع للمجلس البريطاني، وغادر العمل بعد ذلك ليشق مسار حياة عملية لنفسه في الجامعة العربية. وقد كان متمكناً من اللغة الانجليزية، وتعاون مع شخص يدعى هربرت هوارث Herbert Howarth في تقديم مجموعة مختارة من الأعمال المترجمة من الأدب العربي، كانت جديدة في المنهاج الذي اتبعته في الترجمة، وبالتأكيد حيثما يتعلق الأمر باللغة العربية، حيث كانت الترجمات الأكاديمية هي الوحيدة المتوافرة. وكان عنوان ذلك الكتاب « صور من العالم العربي» وأعادت إصداره في طبعة ذات غلاف ورقي دار الغزالة للنشر، وقد تضمن ترجمات من أقدم الشعراء السابقين على ظهور الإسلام وصولاً إلى أمثلة من الزجل، وهو ذلك القالب الشعري الذي يُكتب بالعامية، والذي كان الشاعر بيرم التونسي في ذلك الوقت في مقدمة المتحمسين له، كما شمل كذلك مقتطفات من بعض الأعمال النثرية الأكثر اثارة للاهتمام والأقل شهرة. وأحسب أن هذه المختارات قد انتقاها إبراهيم من قراءاته المكثفة باللغة العربية.

كان إبراهيم شكر الله، في المقام الأول، صحافياً ورجل طباعة، ولكنه كان كذلك موهوباً على نحو مبدع. وقد كتب العديد من القصص القصيرة، التي ترجمت بعضها، ونشرت إحداها، وهي بعنوان «الأم» في مجلة «ميدل إيست فوروم» البيروتية التي تولت رئاسة تحريرها روزماري صايغ، وهي الزوجة الانجليزية للباحث الاقتصادي يوسف صايغ، شقيق صديقي الشاعر توفيق صايغ. وقد حاولت اقناع إبراهيم بكتابة المزيد من القصص، حيث أن القصص التي مررَّها لي في صورة مخطوطات كانت أرقى من معظم أعمال القص التي كانت تؤلف في تلك الأيام، ولكنه لم يبد أن لديه الارادة اللازمة للقيام بذلك. وبعد سنوات عدة، وقبيل وفاته، نشر فجأة ديوان شعر بالعربية لقى استقبالاً جيداً ممن يستطيعون التعرف على العمل الأصيل عندما تقع عيونهم عليه.

حقَّق إبراهيم سيرة حياة عملية متميزة في جامعة الدول العربية. ترى هل كان هو الذي قدمني للأمين العام للجامعة آنذاك عبدالرحمن عزام الذي كتب المقدمة لمجلدي الصغير الذي يضم قصصاً قصيرة لمحمود تيمور؟ لقد كتب إبراهيم بالتأكيد عرضاً للكتاب في «الإيجيبشيان جازيت» التي كانت في ذلك الوقت، من الناحية العملية، المطبوعة الوحيدة التي تصدر باللغة الانجليزية في مصر. وقد خدم في وقت لاحق في الهند وغيرها، ثم تولى رئاسة مكتب الجامعة العربية في لندن، حيث كنا نلتقى بصورة دورية.

من الذكريات الأثيرة لديَّ عن إبراهيم شكر الله ما حدث خلال أسوأ ليلة من ليالي الاضطرابات التي ثارت ضد البريطانيين، في أواخر عام ١٩٤٦، فيما أظن. وكنت أقيم في شقة صغيرة، بجانب بناية كبيرة غير بعيدة عما كان يعرف آنذاك بميدان سليمان باشا. وكان المدخل إلى الشقة يمتد عبر درج طويل صعوداً على جانب البناية. وفي يوم وقوع الاضطرابات ألفيت نفسي سجيناً في الغرفة، حيث كانت جموع من الناس تمر في الشارع بالأسفل مرددة هتافات الموت للإنجليز، ومحطمة أي واجهات محال لم تغلق أبوابها، ولم تنزل مصاريعها. وفي مناسبات عديدة كان أفراد يرتقون الدرج الحديدي ويلطمون بقبضاتهم بابي. وقد مكثت في الداخل ملتزماً السكون، مثلما فأر. ولما لم تكن شقتي تتألف مما يتجاوز غرفة نوم ودشاً ومرحاضاً، فلم يكن لديَّ طعام. وهكذا استبدَّ بيَّ الجوع في نهاية اليوم. غير أن المناخ النفسي السائد في الشوارع لم يكن مشجعاً، فمكثت في غرفتي، عاقداً العزم على أن آوي إلى فراشي بلا عشاء، إذا اقتضى الأمر ذلك. وفيما شرع الليل يسدل أستاره، استطعت سماع المزيد من وقع الإقدام وهي تصعد الدرج الحديدي. نودي باسمي، فيما كان أحدهم يطرق بابي بقوة، وتعرفت صوت إبراهيم، فأدخلته الشقة، وأخبرته بأني لست بحاجة إلا إلى وجبة طيبة. وهكذا خرجنا إلى مطعم كباب كنا نرتاده عادة، وأتذكر فيما دخلت المكان ومخاوف معينة تساورني التفات الناس وابتسامهم حيال هذا الانجليزي، الذي تبدو هويته واضحة للعيان، والذي جرؤ على وضع رأسه في فم الأسد.

إلى جوار تقديمي إلى عدد من مثقفي القاهرة البارزين، كان لويس عوض يصحبني إلى سهرة طه حسين الأسبوعية، التي كان يحضرها الكثير من كبار

الأساتذة والمحاضرين بجامعة القاهرة والمساهمين الرئيسيين في المجلة الشهرية التي يتولى رئاسة تحريرها. وكان أمراً طريفاً بالنسبة لي على الدوام أن لويس، الذي لم يكن يكترث على الإطلاق بمظهره الشخصي، وأفلح على نحو ما في أن يطل دوماً بلحية لم تحلق منذ ثلاثة أيام، كان يصر دائماً على الذهاب إلى الحلاق لحلاقة ذقنه في تلك الأمسيات التي نمضي فيها للقاء طه حسين، الضرير الأكثر شهرة في مصر. وكان طه حسين محور الصالون إلى حد كبير، وغالباً ما كان جانب كبير من الحوار يدور بالفرنسية، عندما يكون هناك أجانب. ولعله مما يوضح الكثير عن مصر، في ذلك الوقت، أن شخصاً مثل طه حسين، فقد بصره في سن مبكرة للغاية، وكان ينتمي إلى خلفية متواضعة إلى حد كبير، كان بمقدوره تلقي التعليم في جامعة السوربون ثم الوصول إلى مرتبة وزير الثقافة.

من بين إصدارات لويس العديدة ديوانه بالعامية، الذي نشره تحت عنوان «بلوتولاند»، وقد كان مجلداً متأثراً بقراءته واسعة النطاق للشعر الانجليزي، وقد ارتاد أرضاً بكراً، ولاتزال قلة من ذوي الفطنة والبصيرة تقرأه. وتصادف أن هذا الديوان يدين بوجوده لي في أحد الجوانب، حيث أن لويس قبيل انطلاقه إلى باريس لقضاء الصيف هناك، أبلغني بأنه ليست لديه نقود، واقترض مني عشرين جنيهاً مصرياً لإصدار الديوان بها. واليوم لا تشتري عشرون جنيها في مصر إلا وجبة متواضعة، ولكن في تلك الأيام – وبالنسبة لأشخاص مثل لويس ومثلي – كانت مبلغاً يُعتد به. وأتذكر أنني احتججت بشدة على لويس لدى عودته من باريس، حيث أمضى الصيف، وبالإضافة إلى ذلك تزوج هناك ، قائلاً إنني اضطررت للبقاء في لهيب الصيف، بينما أفلح هو بشكل ما في الوصول إلى الأموال الضرورية لرحلة إلى باريس، فهل يتفضل لطفاً بأن يرد إليَّ العشرين جنيهاً التي اقترضها مني!

كان لويس رجل شجاعة ومبدأ. وقد أفضت به ميوله الشيوعية إلى السجن أيام عبد الناصر، وبينما أظن أنه لم يكن متديناً على الاطلاق، فإنه كان فخوراً بخلفيته القبطية، ومعتزاً أيضاً بكونه مصرياً. ويقال إنه بينما كان في السجن، فإن مطلبه الوحيد كان الحصول على كتاب في نحو اللغة القبطية. وبالمناسبة، فقد علَّم نفسه كلاً من اللاتينية واليونانية القديمة، بالإضافة إلى تملكه ناصية اللغتين الانجليزية

والفرنسية. وكان معروفاً بمظهره غير المهندم وبعدم اكتراثه بأمور الحياة المادية، باستثناء الكتب. وقد تداولت الألسنة نكتة تقول إن شخصاً كان يقوم، متباهياً، باطلاع صديقه على شقة حصل عليها لتوه. وخلال عرضه لحجرة الجلوس وصفها بأنها مؤثثة على طراز لويس السادس عشر، ثم لدى فتح غرفة صندوقية يختلط فيها الحابل بالنابل، أعلن أنها مؤثثة على طراز لويس عوض!

عدت للإقامة في القاهرة في ١٩٧٤، بعد قضاء أربع سنوات في بيروت، وتابعت أنا ولويس تواصلنا. وبحلول ذلك الوقت كانت اهتماماته قد أصبحت جديرة بباحث ومثقف أكثر مما هي اهتمامات أدبية، ولم يعد يكترث بالعمل الإبداعي، ثم جاء ذلك اليوم الذي تم فيه إخطاري بأن لويس استبدَّ به مرض خطير، وأنه نُقل إلى المستشفى. وقد زرته هناك، وسألتني الممرضة عما إذا كان بوسعي إقناعه بالإقلاع عن التدخين الذي كان يدمنه. وكان ذلك طلباً لا طائل وراءه وجاء متأخراً أكثر مما ينبغي، ففي غضون أسابيع قلائل مات لويس عوض.

٨

إدوار الخراط كاتب كبير ربطتني به الصداقة طويلاً، وقد أُدرجت إحدى قصصه في كتاب «قصص قصيرة عربية حديثة» الصادر عن دار نشر جامعة أكسفورد. وكانت هذه القصة مستمدة من مجلده الأول الذي يحمل عنوان «حيطان عالية». ومنذ ذلك الحين أبدع خمس مجموعات قصص أخرى وما لا يقل عن أربع عشرة رواية. وقد تضمن مجلدي الأخير من القصص العربية الذي أصدرته دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة في عام ٢٠٠٠ قصة قصيرة له كذلك، وذلك على الرغم من أنني بذلت جهداً كبيراً في الوصول إلى قصة لا تطرح صعوبات يتعذر تجاوزها عليَّ كمترجم وعلى القارئ كذلك، وهو يواصل الايغال في غموض كتاباته، ويخاطر بأن يصبح «كاتباً يتوجه للكتاب»، على الرغم من روايتين له تدوران حول الاسكندرية، ترجمتهما فرانسيس لايرديت Frances Liardet يمكن قراءتهما باستمتاع حقيقي. وقد أنجز كل من فريال الغزولي وجون فيرلندين John Verlenden من الجامعة الأميركية، ومن دون أن يخلو الأمر من صعوبة جمة بحسب إقرارهما، ترجمة رواية إدوار «رامه والتنين» إلى الانجليزية.

كان إدوار طوال الوقت مشجعاً كبيراً للمواهب الأصغر منه سناً، التي تم تقديم العديد منها للجمهور الأوسع نطاقاً للمرة الأولى من خلال مجلة «جاليري ٦٧» التي تولى رئاسة تحريرها. ومن بين أصحاب المواهب هؤلاء كتاب مثل إبراهيم أصلان، محمد البساطي، والمرحوم يحيى الطاهر عبدالله. وتعد شقته الصغيرة في الزمالك – التي يرجع صغرها إلى وفرة الكتب – والتي التقيته فيها للمرة الأولى في أربعينيات القرن الماضي ملتقى منتظماً للكتاب الناشئين. وأتذكر أنه ذات مساء كان مصطفى بدوي، الذي كان يقوم بتدريس اللغة العربية في جامعة أكسفورد، موجوداً في القاهرة في زيارة، وكان عدد من الكتاب الأصغر سناً حاضرين كذلك. في ذلك المساء تبين لي بجلاء كيف أن المترجم عن لغة مثل اللغة العربية يختلف عن المترجم الذي يترجم عن الفرنسية أو الألمانية مثلاً، فهذا الأخير يعتمد على الناشرين في اختيار الكتب التي يرغبون في ترجمتها. هل يهتم المترجم بالرواية الفلانية؟ ما هي الأتعاب التي يطلبها لقاء ترجمتها؟ هذا المنهاج لا ينطبق، بالطبع، حيثما تعلق الأمر باللغة العربية. فليست هناك دار نشر في لندن توظف أي شخص مهتم بالأدب العربي الحديث أو قادر على القراءة بالعربية. هكذا فإنني باعتباري مترجماً عن العربية، وبعد أن أقرأ كتاباً أحس بأنه يستحق الترجمة، يمكنني إما أن أجلس وأترجم العمل المقصود، على أمل أنه عندما يحين الأوان فإنني سأجد ناشراً له، أو لابد أن يكون لديَّ تحت تصرفي ناشر لديه ما يكفي من الثقة في حكمي على الأشياء، وسيقوم بنشر كل ما أكترث بترجمته، على نحو ما كانت الحال عليه فيما يتعلق بسلسلة «مؤلفون عرب» التي أصدرتها دار هاينمان. إنني أعرف أن الكثير من الكتاب العرب – وقد أعرب الطيب صالح لي عن هذا الرأي صراحة– يشعرون بأنه كان ينبغي القيام بمحاولة للعثور على ناشرين ينتمون للتيار الرئيسي لحركة النشر للقيام بنشر أعمال القص العربية. وفي حالة الطيب صالح نفسه كنت ممتناً لوجود سلسلة «مؤلفون عرب» تحت تصرفي، وإلا لظلت رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» غير منشورة. على الأقل فإن هذه الرواية حققت، اعتماداً على مزاياها الخاصة، الترجمة إلى عدد من اللغات بجوار اللغة الانجليزية، بل انها شقت طريقها إلى سلسلة بنجوين للكلاسيكيات الحديثة ذات المكانة الرفيعة. ولما كان الاهتمام الرئيسي للمترجم هو التأكد من أن جهوده سوف تُكافأ برؤية كتابه وقد

تمت طباعته، فقد سعيت على الدوام للعثور على ناشر يمكن الاعتماد عليه في النظر بعين التعاطف إلى الترجمات عن اللغة العربية. غير أن الأمر اقتضى حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل لكي يقوم ناشر من مستوى دار دوبلداي بنشر أعماله. إن الناشرين اليوم هم، في المقام الأول، رجال أعمال، ويمقتون خوض غمار المخاطرات، وبصفة خاصة مع كتاب مترجم عن اللغة العربية. ومن المعروف أن القراء باللغة الانجليزية يبتعدون عن أي كتاب مترجم، حتى ولو كان مترجماً عن الفرنسية. فلنتأمل، على سبيل المثال، أعمال الكاتب اللبناني أمين معلوف، الذي يكتب بالفرنسية، فقد قامت دار كوارتيت اللندنية للنشر بشراء حقوق رواية له بيع منها ما يزيد على مليون نسخة في فرنسا، ولم يبع من الطبعة الانجليزية التي أسفر عنها هذا الشراء إلا حوالي ألفي نسخة فحسب. هكذا فإن المترجمين عن العربية يحظون، في العديد من الجوانب، بسلطة أعظم وبمسؤولية أكبر من نظرائهم الذين يترجمون عن الفرنسية، ذلك أنهم لا يأخذون على عاتقهم دور المترجم فحسب، وإنما كذلك دور الشخص الذي يقرِّر ما ينبغي ترجمته، فأنت باختيارك ترجمة عمل س. يُنظر إليك على أنك ترفض كلا من ص. وع. (وهما قد يكونان في مثل جودة س. أو ربما يفوقانه).

تبين لي بجلاء أن دور المترجم عن العربية يتسم في آن بكونه صعباً ومما لا يُحسد عليه، في ذلك المساء الذي أمضيته في شقة إدوار الخراط مع العديد من كتاب القاهرة الأصغر سناً، والذين سألني أحدهم فجأة: «من أنت لتختار الكتاب الذين تترجم أعمالهم؟». فاجأني السؤال، وأحسست بالامتنان لإدوار عندما تدخل في الحديث، وسأل الشاب: «ما الذي تريده أن يقوم به إذا لم يختر بنفسه؟»

فرد الشاب: «ينبغي عليه الذهاب إلى وزارة الثقافة والحصول على قائمة بالكتب التي ينبغي ترجمتها». أثار هذا الرد جواً من المرح الذي ساد الجميع، حيث كان معروفاً أن المؤسسة لديها كتابها الذين تفضلهم، وهم ليسوا بالضرورة الأفضل. واصل إدوار حديثه بالإشارة إلى أنني، في نهاية المطاف، من سيقع على كاهله ترجمة الكتاب بكامله، فلماذا أترجم كتاباً قد لا يعجبني؟ كذلك فإنني بحكم كوني انجليزياً ألست مؤهلاً بشكل أفضل لإصدار حكم بشأن الكتاب الذي سيتلقاه القارئ بالانجليزية لقاء حسنا؟ أحسست بالامتنان لإدوار لرده بالنيابة عني، حيث أنني أدرك

الشعور الذي من المحتم أنه موجود لدى الكثير من الكتاب العرب الذين لم تترجم أعمالهم لسبب أو لآخر. إن الحقيقة المحزنة هي أن الكاتب العربي تتاح له، من خلال ترجمة أعماله فحسب، فرصة لأي اعتراف جدي به، وعلى الأقل احتمال حصوله على مكافأة مالية حقيقية. وينبغي كذلك الأخذ في الاعتبار أن ترجمة القص العربي لا تُكافأ إلا بصورة متواضعة بالمعايير المالية، وإذا مارس المرء الترجمة لكي يدعم دخله، فإنه سيجد أنه سيكون في وضع أفضل إذا استغل وقته في إعطاء دروس في اللغة الانجليزية. وهذا أمر لا يجري تقديره بصورة عامة. وهكذا فإن صديقي سعيد الكفراوي، عندما قمت بانجاز مجلد من قصصه القصيرة في صورة ترجمة إلى الانجليزية، ونص العقد المبرم مع الناشر على أن نتقاسم العوائد مناصفة، دهش عندما وجد أن نصيبه لا يعدو أن يكون مبلغاً متواضعاً، وسألني: لكن ألم تكسب عيشك من الترجمة كل هذه السنين؟ وكان الرد الموجز هو: كلا، ولله الحمد.

يعد وضع الكاتب في مصر، على سبيل المثال، أليماً اليوم، فالمال الذي يحصل عليه من كتاب لن يكون كافياً لطبعه على الآلة الكاتبة، وحتى الكتاب الراسخين يدفعون بالفعل للناشرين لكي تطبع كتبهم. هكذا ما هي المباهج النابعة من كون المرء كاتباً في العالم العربي باستثناء المكانة التي ترتبط بهذا الوضع؟ وبسبب الموقف الراهن للكاتب فإن عناصر الجذب المرتبطة بترجمة أعماله تصبح أكبر. فحتى، على سبيل المثال، إذا لم تؤد عملية ترجمة أعمال المرء إلى وضع الكثير من المال في جيبه، فإنها ستفتح الباب على الأقل لدعوته إلى المؤتمرات المختلفة، لنقل في تونس أو في المغرب، أو إذا كان الكاتب محظوظاً لقضاء أيام عدة في فرنسا أو بلد أوروبي آخر، مع دفع كل النفقات، ومن الذي يدري أي أبواب أخرى ستفتح. ولم أدهش تماماً عندما تلقيت ذات مساء مكالمة هاتفية من كاتب معروف لم يظهر شيء من أعماله في صورة ترجمات إلى لغات أجنبية، واقترح عليَّ القيام بترجمة إحدى رواياته، وأنه سيدفع لي أي أتعاب معقولة أود أن أقترحها، وسوف يتنازل لي عن أي حقوق متعلقة بالكتاب، فأبلغته بأنني لا أترجم من أجل المال، في المقام الأول، ولكنني، ذات يوم، إن شاء الله، سأترجم أحد كتبه. ويسعدني القول إن له اليوم العديد من الكتب المترجمة إلى الانجليزية.

الإصدار الآخر الوحيد الذي نشرته إلى جانب المجلد الصغير المتضمن قصص محمود تيمور، خلال الوقت الذي أمضيته في القاهرة أثناء الأربعينيات، هو كتاب صغير بعنوان «مقاطع للترجمة من العربية وإليها»، ففي ذلك الوقت كنت أعطي دروساً في الترجمة في المعهد البريطاني، ووجدت نفسي مواجهاً بصفة مستمرة، في اللحظة الأخيرة، باختيار وتقديم قطع على سبيل العينات للترجمة مطبوعة على الرونيو للطلاب، ووافقت مكتبة الأنجلو إيجيبشيان التي كانت، في بعض الأحيان، تخاطر بدخول مجال النشر على إصدار هذا الكتاب. وكان صاحب المكتبة هو صبحي جريس، وخلال السنوات الممتدة بين ١٩٤٩ عندما غادرت القاهرة وعودتي إليها في ١٩٧٤ كنت أحرص على زيارة صبحي، عندما أكون موجوداً في القاهرة. وكان بحلول ذلك الوقت قد تجاوز منذ زمن بعيد السن التي يتقاعد فيها الناس عامة، لكنه واصل الاضطلاع بالمسؤولية عن المكتبة إلى أن أوغل في التسعينيات من عمره. وخلال هذه السنين، وفي كل مرة نلتقي، كان يستفسر باهتمام حقيقي عن أمي، التي كانت قد جاءت إلى القاهرة في أواخر الأربعينيات، واستمتعت كثيراً بحياتها فيها، وبقيت بها لبعض الوقت حتى بعد أن كنت قد تركتها. وقد توفيت منذ وقت طويل، ولكن في كل لقاء لي مع صبحي كان يسأل عن أمي، فأضطر إلى إيضاح أن من المحزن أنها قد توفيت. وظل هذا المشهد يتكرر عاماً إثر آخر إلى أن توفى بدوره.

كان أحد طلابي، محمد حبيب، والذي أصبح صديقاً لي، يساعدني بعض الوقت في الملاحظات الخاصة بمقاطع الترجمة من الانجليزية إلى العربية. وقد كان بحاراً سابقاً، وعمل على يخت الملك، «المحروسة» . وقد كتب وصفاً للوقت الذي أمضاه على متن اليخت،بما في ذلك تعرضه للضرب الوحشي، وكان قد طلب مني الاحتفاظ له بالمخطوط عندي تحسباً لتفتيش غرفته - بحكم كونه عضواً في جماعة الأخوان المسلمين - ثم ذات مساء سألني فجأة، أنا الذي أخذني في مناسبات عدة للقاء حسن البنا، المرشد العام للجماعة، والذي طلب مني أن احتفظ له بمخطوط بالغ الخطورة، سؤالاً بسيطاً ومباشراً تماماً: هل كنت جاسوساً بريطانياً؟ كان سؤاله، بالطبع، على نحو من الأنحاء، مما يمكن فهمه: لماذا لا أقيم مثل كل انجليزي محترم آخر على نحو مترف في شقة بالزمالك وأرتاد النادي البريطاني بصفة منتظمة؟ إنني أذكر هذا

فحسب لان هذا تشكك طبيعي من المحتم أن يثيره المرء بقرار تبني بلد شخص آخر. بعد خمسين عاماً من ذلك، كتب أكاديمي مصري مقالاً في «الأهرام»، التي أساهم بالكتابة بصورة منتظمة في طبعتها الأسبوعية الصادرة باللغة الانجليزية، يقول فيه إنني بينما كنت موجوداً في القاهرة خلال الحرب كنت جاسوساً بريطانياً، وإنني خلال ذلك الوقت نجحت في «التقاط» بعض العربية. لم تكن مما له أهميته الحقيقة القائلة إنني لم يتصادف أن كنت موجوداً في القاهرة خلال الحرب على الإطلاق. وأعرب العديد من الأصدقاء عن أسفهم واعتذارهم، بينما كان كل ما بوسعي القيام به هو أن أحدِّث نفسي بأن هذا هو الثمن الذي يدفعه المرء لقاء محاولة غرس جذوره في حقل أجنبي.

٩

مُنح نجيب محفوظ جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٨. وقد اقترحت على مسؤولي دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة أن يبادروا بإنشاء جائزة سنوية تحمل اسمه لأفضل رواية باللغة العربية. ولم يتم عمل شيء في هذا الصدد على امتداد سنوات عدة، إلى أن عاد إلى القاهرة في ١٩٩٥ مارك لينز، الذي كان مديراً للدار ثلاث سنوات في منتصف الثمانينات، وذلك لتولي المنصب نفسه، فطرحت الفكرة عليه، وأبدى حماسه لها. وقرَّر أن الجائزة، ميدالية نجيب محفوظ للأدب، ستتألف من ميدالية فضية بالإضافة إلى مبلغ ألف دولار، وستتضمن كذلك ترجمة الرواية الفائزة إلى اللغة الانجليزية وقيام دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة بنشرها. وقمت أنا وهو بزيارة نجيب محفوظ، الذي رحب بالفكرة، وأعرب عن رغبته في أن أكون عضواً في اللجنة التي ستشكل لاختيار الرواية الفائزة. غير أنني، في وقت لاحق، وبعد إمعان التفكير في الأمر، قرّرت الانسحاب، حيث شعرت بأن اللجنة ينبغي أن تتألف من مصريين فحسب، أو من عرب على الأقل. وقد مُنحت الجائزة لأول مرة عام ١٩٩٦، ومنذ ذلك الحين أحرزت قدراً مؤكداً من البروز، وكانت نوعية الترجمة جيدة ومستوى إنتاج المنتج النهائي وتسويقه مهنياً، كأي كتاب يصدر في الغرب. ومع ذلك فإن رواية واحدة من الروايات الفائزة والتي تمت ترجمتها هي التي وجدت ناشراً منفصلاً في لندن أو

نيويورك، ولذا توصلت دار نشر الجامعة الأميركية إلى اتفاقاتها الخاصة هناك لتوزيع الكتاب بصورة مباشرة في أوروبا وأميركا الشمالية.

بينما كنت أول من ترجم عملاً من أعمال نجيب محفوظ – قصة من مجموعته الأولى – فقد ترجمت في وقت لاحق قصة له أكثر نضجاً بكثير بعنوان «زعبلاوي»، أدرجتها في المجلد الذي أصدرته دار نشر جامعة أكسفورد بعنوان «قصص قصيرة عربية حديثة»، والتي شقت طريقها بعد ذلك إلى مجموعة نورتون بعنوان «روائع الأدب العالمي»، حيث تُعد المثال الوحيد على الكتابة المستمدة من الأدب العربي. وقبل فوزه بجائزة نوبل لم أكن قد ترجمت له كتاباً كاملاً، ولكن بعد الجائزة، وما إن أجرت دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة اتصالاً مع دار دوبلداي لتنشرا معاً الجانب الأكبر من أعماله مترجماً إلى الانجليزية، حتى أتيحت لى الفرصة لترجمة بعض أعماله بشروط مواتية. فاخترت، أولاً وقبل أي شيء، تقديم مجموعة مختارة من قصصه القصيرة، حيث أحسست بأن مثل هذا المجلد ينبغي أن يوزع بشكل جيد على نحو معقول، وأن القصص على مدار السنين ستؤخذ منه لإصدارها ضمن مختارات أخرى. وفي حقيقة الأمر أن ظني في هذا الصدد قد صدق، وأُعيد نشر قصة «زعبلاوي» مرات عدة، وبصفة خاصة في الولايات المتحدة.

بينما كنت أترجم إحدى القصص لهذا المجلد، صادفت صعوبة، غالباً ما يواجهها المترجمون عن اللغة العربية، وهي الأخطاء المطبعية وغيرها من الأخطاء. ففي قصة «الحاوي خطف الطبق» وصلت إلى الفقرة الأخيرة، ولم أفقه لها معنى، فاستشرت صديقاً من أصدقائي المصريين المطلعين بصورة جيدة على أعمال محفوظ، لكنه لم يتمكن من مساعدتي. ومن هنا فقد بادرت إلى الاتصال هاتفياً بالكاتب نفسه، الذي أقرَّ بأن هناك غلطة محزنة في النص، وحل مشكلة الصعوبة التي واجهتني بإمدادي بسطر بكامله كان الطابعون قد أسقطوه من النص. ويبدو أن أحداً لم يلاحظ أن شيئاً بالغ الأهمية، وهو جزء حيوي من القصة، غائب عن النص. ومثل هذه الأخطاء تحدث لأن الناشرين باللغة العربية في مصر لا يكلفون أنفسهم عناء الاستعانة بمحررين يقومون بمراجعة المادة التي يطبعونها. كذلك، وبغض النظر عن التأكد من عدم زحف الأخطاء إلى النص المطبوع، فإن المحرر قد يقترح على الكاتب إجراء تغييرات معينة. وأنا

أعرف روايات عربية عدة كان يمكن أن تستفيد إلى حد كبير من وجود محرر يقترح، في لباقة، على المؤلف القيام باختصارات للنص على نحو مفيد.

بعد اتمام المجلد الذي يمثل قصص نجيب محفوظ القصيرة، اخترت ترجمة روايته القصيرة بعنوان «رحلة ابن فطومة»، وهي بمثابة Pilgrim's Journey (رحلة حاج) مصرية. وكانت الفكرة الأساسية جيدة، ولكنني أحسست بأن المؤلف لم يقم قط باستجماع ما يكفي من الحماس لموضوع الرواية. وبينما عكفت على ترجمتها، وجدت أن اسم البطل قد تغير فجأة في وسط الكتاب، فاتصلت بالمؤلف هاتفياً بشأن هذا الأمر، فبدا له هذا الاكتشاف طريفاً للغاية. سألته: «أي أسم أطلقه عليه إذن؟» فرد ضاحكاً: «اختر الاسم الذي يعجبك!». إن مثل هذه التضاربات والاخطاء المطبعية هي التي توضح أن صناعة النشر العربية بحاجة إلى محررين.

مع انتاج الترجمات إلى الانجليزية بصورة جيدة من قبل دوبلداي بالاشتراك مع دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة، تشجعت على القيام بترجمة رواية أخرى من روايات نجيب محفوظ. وهذه المرة اخترت رواية أطول عنوانها «ليالي ألف ليلة» والتي أوصاني بترجمتها صديقي عبده جبير. وقد ساورني الشعور بأنها تبدو جيدة في نصها الانجليزي وخلصت إلى أن جعل عنوانها «الليالي والأيام العربية» سيكون له مغزاه بشكل أكبر للقارئ باللغة الانجليزية الذي تعد «الليالي العربية» مألوفة له بالفعل. وهذا، في اعتقادي، مثال آخر على أن التمسك الصارم بالأصل لن يؤدي إلى نتيجة تُذكر. وبينما ألتزم الدقة الشديدة في الترجمة، وأحرص على ألا أضيف إلى النص أو أحذف منه أي شيء، مهما كان ذلك مغرياً لي، فإن المرء لا يمكن إلا أن يدرك أن الانجليزية والعربية هما لغتان مختلفتان تمام الاختلاف، وفي نهاية المطاف فإن المرء يسعى إلى تقديم ترجمة مفهومة ومبهجة في آن بالنسبة للقارئ بالانجليزية. وقد بيعت «الليالي والأيام العربية» بصورة جيدة على نحو معقول، وأُدرجت في القائمة القصيرة للأعمال المرشحة، في انجلترا، للفوز بجائزة «الإندبندنت» لأعمال القص المترجمة. وقد قرأت، بعد ذلك بسنوات، في صحيفة «أخبار الأدب» التي تصدر أسبوعيا باللغة العربية، أن طبعة محدودة من هذا الكتاب مزودة برسومات أُعدت لها خصيصاً قد صدرت في الولايات المتحدة.

اخترت، أخيراً، أن أترجم مجلداً يضم تأملات محفوظ الشخصية، «أصداء السيرة الذاتية»، وقد صدر هذا العمل مرفقاً بمقدمة بقلم نادين جورديمر، وهي فائزة أخرى بجائزة نوبل للأدب، ومن المعجبين بكتابات محفوظ.

قبل ترك موضوع الكاتب العربي الوحيد الذي فاز بجائزة نوبل، من المهم الاشارة إلى أنه قبل سنوات من منح هذه الجائزة لمحفوظ كان كاتب انجليزي متميز وهو جون فاولز John Fowles قد قرأ رواية «ميرامار» لمحفوظ في ترجمتها إلى الانجليزية، وكتب مقدمة لها شديدة اللماحية وحافلة بالتقدير. وظهرت ترجمة الرواية مصحوبة بالمقدمة في سلسلة «مؤلفون عرب» الصادرة عن دار هاينمان. وبعد فوز محفوظ بالجائزة، استمرت «ميرامار» في الصدور في طبعة أصدرتها دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة ودار دوبلداي، ولكن من دون مقدمة فاولز. لماذا؟ لاشك في أن السبب في ذلك يرجع إلى أن المقدمة قد انتهت بمقتطف طويل من نجيب محفوظ يعرب، في تواضع، عن اعتقاده بأنه يدرج ضمن الفئة الثالثة، وليست الأولى، من الكتاب. وهذا، من منظوري، لا يضعه بالضرورة ضمن كتاب الفئة الثالثة، وإنما يوضح ببساطة أي شخص متواضع هو. وعلى أي حال، فإن جون فاولز نفسه يعد موهبة بارزة، ومن المؤكد أن مما له أهميته أن نجد كاتباً كهذا يشيد بمحفوظ قبل أن تعزز وضعه جائزة نوبل. وقد نُسى الآن على نحو مناسب أنه في وقت من الأوقات كان الكثير من مرتادي مقهى ريش بالقاهرة يصفونه بأنه «موضة قديمة».

١٠

بدا لي الاستمرار في العمل محاضراً بجامعة القاهرة طريقة حياة مثالية، فبينما لايتلقى المرء راتباً كبيراً، لا يقع على كاهله بالمثل عبء عمل ثقيل الوطأة. لكن أبي داهمه المرض، ولم أكن قد زرت انجلترا منذ مغادرتي لها في ١٩٤٥ . ولذا قررت العودة إلى لندن في صيف ١٩٤٩. ومن المؤكد أنني لم أكن اعتزم السعي للحصول على وظيفة أخرى، ولكنني تصادف أن التقيت في لندن بشخص عرض عليَّ العمل مندوباً في الشرق الأوسط لشركة متخصصة في طبع أوراق العملات. وبعد قضاء عام في إيران ممثلاً لهذه الشركة، قمت بجولة باسمها في أرجاء الشرق الأوسط، وشملت هذه الجولة زيارة بغداد. وكانت بغداد قد أصبحت موطناً لصديقي الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا، الذي كنت قد تعرفت به، في بادئ الأمر، عندما كنا ندرس معاً لبعض الوقت في جامعة كامبردج.

بينما لم تبد الحكومة العراقية اهتماماً بطباعة أوراق نقد جديدة لدى الشركة التي كنت أمثلها، فقد قررت مواصلة البقاء في بغداد، لأمضي بعض الوقت مع جبرا وأصدقائه الذي اجتمعوا حوله وأثاروا اهتمامي، والذين كان الكثير منهم يقومون مثله بالتدريس في جامعة بغداد. إنتقلت إلى أرخص فندق أمكنني العثور عليه، وهو انتقال أثار انزعاج شرطة بغداد، وأمضيت أيامي ونصف لياليَّ مع الزمرة الأدبية

للعاصمة العرقية. وبعد سنوات طويلة من ذلك فحسب أبلغني كاتب فلسطيني صديق في أبوظبي أنه كان قد قرأ عني في سيرة حياة جبرا الذاتية، حيث يصف جبرا إقامتي في بغداد، بما في ذلك المقلب الذي قمت أنا وهو بتدبيره لبلند الحيدري، الذي أصبح فيما بعد أحد الشعراء البارزين في حركة الشعر الحديث في العالم العربي. وقد اهتم بلند بلقاء إنجليزي يتحدث العربية، فأمضينا معاً ساعات طوالاً نتجاذب أطراف الحديث عن شعر ت.س. إليوت، ديلان توماس Dylan Thomas إلخ. وفي ذلك الوقت كانت الحركة الوجودية موضوعاً متداولاً في النقاش بين المثقفين العرب، وعلى الرغم من أن بلند لم يكن على معرفة بأي لغة أجنبية، إلا أنه كان مهتماً بهذه الحركة بصفة خاصة. وقد دبرت أنا وجبرا مقلباً بالادعاء أمام بلند بأن سارتر قد تلقي الإلهام فجأة باقتحام عالم الشعر وتأليف قصيدة وحيدة لاغيرها، والتي تصادف أنها تدور حول الوجودية، وأوضحنا له أن هذه القصيدة تُرجمت من الفرنسية إلى الانجليزية، ونُشرت في مجلة أدبية انجليزية، أحضرت نسخة منها، وجلست أنا وجبرا وترجمنا هذه القصيدة إلى العربية لإطلاع بلند عليها، على أمل أنه قد يكون بمقدوره، من خلال معرفته بالوجودية، التمكن من حل لغز أو لغزين مما بدا غامضاً فيها. وقمت أنا وجبرا سوياً بنظم قصيدة بالعربية، نصبنا فيها عدداً من الشراك لصديقنا، الذي لم يساوره الشك بشأنها. وأتذكر أنني قد ساهمت بإشارة إلى «الغريب»، بحيث يتمكن بلند لاحقاً من أن يوضح لنا أن هذا يشير، بالطبع، إلى رواية كامو Camus التي تحمل هذا العنوان. وقد كانت خدعة قاسية، لكن بلند أخذها بروح رياضية، وقد التقيته فيما بعد في مناسبات عدة في بيروت، وذات مرة في مطار القاهرة، وكذلك بين الحين والآخر في لندن، التي استقر فيها مع زوجته. وكانت صدمة لي أن أعلم بوفاته في ١٩٩٦، في إحدى زياراتي الدورية للندن، فقد اتصلت هاتفياً بداره، فردت زوجته، وبعد المجاملات المعتادة طلبت أن أتحدث مع بلند، فما كان منها إلا أن أبلغتني بأنه قد توفي لتوه. وهو يعد الآن أحد الشعراء البارزين في حركة الحداثة، وقد تم تكريمه باستحداث جائزة للشعر تحمل اسمه، وتُقدم في المهرجان الأدبي السنوي، الذي يقام في الصيف في مدينة أصيلة المطلة على الساحل المغربي، إلى الجنوب من طنجة.

خلال رحلاتي العديدة إلى بغداد، كنت أنزل بصفة عامة لدى جبرا وزوجته

العراقية لميعة. وكان جبرا انساناً موهوباً بصورة طبيعية، وهو ينتمي إلى خلفية متواضعة، وقد ولد في بيت لحم، وابتعثه البريطانيون الذين كانوا يحكمون فلسطين في ذك الوقت، إلى كامبردج بمقتضى منحة دراسية، حيث حصل على درجة علمية في الأدب الانجليزي. وامتدت مواهبه الإبداعية إلى الشعر (الذي نشر دواوين منه بالانجليزية والعربية كليهما)، الرواية، القصة القصيرة وكذلك النقد الأدبي. وكان بالإضافة إلى ذلك ناقداً فنياً، وكتب بصورة ضافية عن مجموعة الفنانين الموهوبين بصورة استثنائية، الذين شهدتهم بغداد في ذلك الوقت. وامتدت ترجماته إلى اللغة العربية، لتشمل نصف دزينة من مسرحيات شكسبير وكذلك رواية فوكنر «الصخب والعنف»، وأنجز كذلك التجربة المثيرة للاهتمام المتمثلة في نقل مسرحية «في انتظار جودو» لبيكيت إلى العامية العراقية. وكان يمكن لداره في حي المنصور في بغداد أن تكون قائمة على النحو ذاته في أكسفورد، أو ربما في باريس، فالكتب تكسو تلك الأجزاء من الجدران التي لا تشغلها مستنسخات لوحات فنانين من أمثال شاجال أو لوحات أو رسومات لأصدقاء جبرا من الفنانين أو من إبداعه هو نفسه، فلا عجب أن ينزعج عندما أخطره أحدهم بأنه ينبغي، حرصاً على صحته ومصلحته، أن يعطي الصدارة في جدرانه للوحة لرئيس البلاد المحبوب. وفي سنوات لاحقة، عندما كنت قد بدأت في اصدار دورية «أصوات» الأدبية في لندن، ساهم فيها بمقال ضاف، مزود بأعمال إيضاحية عن جواد سليم، الفنان العراقي البارز، الذي قُدّر له أن يتوفى في عمر مبكر من جراء أزمة قلبية. وبعد سنوات عدة، وفي زيارة قصيرة لباريس، أهدتني الكاتبة والصحافية أنعام كجاجى كتاباً كانت قد ألفته عن لورنا، أرملة جواد سليم الانجليزية.

في وقت من الأوقات، خلال الخمسينيات والستينيات، كان جبرا يقوم بزيارات متواترة إلى لندن، وكان ذلك بصفة عامة بهدف الاشراف على تسجيل تعليقات على أفلام وثائقية تعدها شركة النفط العراقية، والتي كان يعمل مسؤولاً صحافياً بها. وغالباً ما كنا نلتقي أنا وهو أثناء هذه الزيارات مع الشاعر توفيق صايغ، الذي كان يعمل أنذاك محاضراً في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية. وكان توفيق بدوره مساهماً منتظماً في مجلة «أصوات»، حيث قدم ترجمة لـ «أربع رباعيات» لإليوت. وقد

أتاحت لي «أصوات»، وهي دورية لم يصدر منها إلا اثنا عشر عدداً، الفرصة لأقدم باللغة العربية العديد من كتاباتي المفضلة. وقد اشتمل كل عدد على قصة قصيرة، كانت في بعض الأحيان بقلم كتاب عرب من نوعية غسان كنفاني وزكريا تامر، وفي أحيان أخرى كانت قصصاً مترجمة عن الانجليزية، مثل قصة بقلم جويس من «أهالي دبلن»، وقصة غير ذائعة لديلان توماس، وقصة لإيزاك دينسين Isak Dinesen وضم كل عدد أيضاً مقالاً مع عناصر فنية إيضاحية عن فنان، مثل بيكاسو Picasso وهوكوساي Hokusai وأحد الفنانين المفضلين عندي، وهو هنري روسو Henri Rousseau وأتذكر كذلك إدراج مختارات من ذلك العمل الغريب والأثير لدىَّ «القبر الصاخب» لبالينوروس Palinurus (سيريل كونولي Cyril Connolly).

نتيجة لمجلة «أصوات»، زارني في أوائل الستينيات مندوب من مكتب «مؤتمر الحرية الثقافية» يدعى جون هانت John Hunt وكان هانت أميركياً يعمل في مكتب المؤتمر في باريس، وأبلغني بأن المؤتمر، الذي كان يقوم بالفعل بتمويل مجلة «إنكاونتر» ونظيرتها في فرنسا (بروف) وفي المانيا (ديرمونات)، يفكر في اصدار مجلة ثقافية باللغة العربية، فهل تصادف أنني أعرف أي شخص يمكن أن يكون رئيس تحرير مناسباً لها؟ كانت هناك إشارة ما إلى أن يوسف الخال، من بيروت، والمعروف بالفعل بأنه مؤسس مجلة «شعر» والمجلة الأدبية العامة «أدب» ومالك قاعة لعرض الأعمال الفنية، قد يكون اختياراً ملائماً، لكنني على الرغم من ذلك شعرت بأن توفيق صايغ سيكون رئيس تحرير ممتازاً لمثل هذه المجلة، كما أنه ستروق له التجربة، بدلاً من مواصلة تدريس اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية. وسألت توفيق عما يشعر به حيال هذا الأمر، فقال إنه سيكون مهتماً به، ولكن بشرط أن يعطى حرية التصرف بصورة كاملة، فقلت له إن الأمر وقف عليه في تحديد الشروط التي يرغب في تلبيتها.

كنت أعرف أن توفيق انسان صعب المراس، وأعلم أنه لن يوافق بالتأكيد على أي شيء إلا على الحرية الكاملة في كل ما يتعلق بالتحرير. وكنت أنا نفسي قد تعرضت لحادث مؤسف معه بشأن عرض كان قد كتبه لـ «أصوات» حول كتاب في موضوع العطر، كنت قد عهدت به إليه، حيث كنت أعرف أنه كتاب يود أن يقتنيه. وعندما قدم

عرض الكتاب، رأيت أنه يتضمن اشارة إلى «عطر ما تحت الإبط» وشعر بودلير. وفي ضوء اعتقادي أن بعض قرائي ربما يجدون أن هذه الاشارة مما يعترضون عليه، فقد استبعدت هذه الاشارة، من دون أن يساورني الشعور بأنني قد أتيت أمراً إدًا بصفة خاصة. غير أن توفيق استشاط غضباً حيال ما فعلته، ورفض لبعض الوقت محادثتي. وقد حسمت هذه الورطة بالفعل عندما أصرَّ يوسف الخال، في زيارة إلى لندن، على أن يقبِّل أحدنا رأس الآخر ونصَّفي ما بيننا ودياً.

أحسَّ توفيق بالضيق كذلك لأنني، بحكم أنني لم أكن مهتماً بالشعر بصفة خاصة، لم أقرأ أياً من دواوينه. وهكذا وعدته بأن ديوانه التالي عندما يُطل سأقرأه من الغلاف إلى الغلاف. وعندما أهداني نسخة من ديوانه التالي أخذتها. وعقّبت في لقائنا التالي بقولي إنني لم أكن أعرف أن له ابنة. وقد دُهشت لان أحداً غيري لم يكن قدر رصد الاشارة المشفرة، إلى حد ما، إلى أن له ابنة، انجبتها صديقته كاي، التي دُعي الديوان باسمها، حيث كان عنوانه «قصيدة كاف».

تمثل اهتمام مشترك من جانبي ومن جانب توفيق في الأدب الإيروتيكي، ومنه علمت، على سبيل المثال، بأمر كتاب «قصة أو». وكانت لديه مجموعة مميزة من الأعمال الإيروتيكية باللغة العربية، وقد اتفقنا على أننا سنشتغل سوياً، ذات يوم، على إنجاز ترجمة إلى الانجليزية لمجموعة مختارة من هذه الأعمال نقلاً عن العربية. وعندما توفي في الولايات المتحدة، لم يبلغني نبأ ما حدث لمكتبته، التي ربما كان قد تركها وراءه في بيروت.

كنت قد علّقت الآمال على أنني قدمت خدمة جيدة لصديقي باقتراح إسناد رئاسة تحرير المجلة الجديدة إليه، والتي صدرت بالفعل تحت عنوان «حوار». وقد تلقت قبولاً حسناً، وتضمنت في أحد أعدادها الأولى رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح بكاملها. غير أن الكثيرين في العالم العربي لم يكونوا سعداء حيال راعيها الرسمي. وأتذكر جيداً مناقشة دارت بيني وبين جبرا من ناحية وتوفيق من ناحية أخرى في هذا الشأن. وبينما كان كل من جبرا وتوفيق قد كتبا لـ «أصوات»، فإن أياً منا أنا وجبرا لم نساهم في «حوار». ولم يكن توفيق سعيداً بذلك، وسألنا عن السر في أننا لم نقم بذلك، فرددنا معاً إنه من سوء الطالع أن الشكوك تساورنا بشأن

«حوار»، وإن أياً منا ليس في وضع يخاطر معه بالكتابة لمجلة ينظر الكثيرون إليها بعين الشك. في نهاية المطاف، أقنعنا توفيق بأن يقوم، حفاظاً على صالحه، بزيارة إلى باريس ومقابلة جون هانت. وقد قام بهذا، وتم اقناعه بأن كل شيء فيما يتعلق بـ «حوار» يتم بصراحة ومن دون مواربة. غير أنه لم تنقض إلا أشهر قلائل قبل أن يعلن، من دون أدنى اكتراث بالأبرياء الذين سيضارون، أن «مؤتمر الحرية الثقافية» كانت تموله وكالة المخابرات المركزية الأميركية، في حقيقة الأمر. ولا يملك المرء إلا التفكير في أن الحكومة الأميركية لها من الجيوب ما يفوق وكالة المخابرات المركزية الأميركية، والتي كان يمكن أن تعطي منها الأموال لمنظمات بريئة، فيما يبدو، مثل «مؤتمر الحرية الثقافية». غير أنه من تجربة الماضي يتعين على المرء أن يدرك أن أميركا ليست بارعة في مثل هذه الأمور، وكل من يقع في حبائلها عليه أن يلزم الحذر من النتائج المحتملة. وقد ظفرت الصحافة العربية، بالطبع، بيوم مشهود، وصبَّت جام غضبها على توفيق، واتهمته بأنه جاسوس أميركي، وطالبت إحدى الصحف بمحاكمته. وكان يقيم خلال ذلك الوقت في بيروت، وزرته هناك، فوجدته في حالة معنوية بالغة السوء. وبعد ذلك مضى إلى جامعة كاليفورنيا في بيركلي، حيث مات من جراء أزمة قلبية مفاجئة.

رويت قصة «مؤتمر الحرية الثقافية» في كتاب بعنوان «من الذي دفع للزمار» من تأليف فرانسيس ستونور سوندرز Frances Stonor Saunders ويبرز جون هانت، بالطبع، في هذا الكتاب، ويتم إبلاغنا بأنه ترك المنظمة في ١٩٦٨، وأنه تلقى وساماً من وكالة المخابرات المركزية تقديراً للخدمات التي قام بها في حفل أحيط بالسرية والكتمان، أقيم على متن عوامة في نهر السين، وانه في وقت لاحق تقاعد وأقام في جنوب فرنسا. وهنا أنقل من الكتاب عبارة وردت على لسان جون هانت في يوليو ١٩٩٧: «كان هناك أناس في الهند، في لبنان، في افريقيا - رجال ونساء راهنوا على المؤتمر بناء على قوة الطروحات التي تقدمت بها أنا ومايك وآخرون، والذين وجدوا أنفسهم بعد ذلك في قلب الإعصار. وإنني أعرف أن الكثيرين منهم قد عانوا أشد المعاناة، وما من قدر من الاستراتجيية العليا أو الوعظ أو النقاش سيجعل هذه الحقيقة تتبدد. لقد وضعوا شرفهم وحياتهم على المحك، وأنا لم أنس ذلك». وربما كان مما له مغزاه أن جون هانت قد اختار أن يتقاعد في فرنسا، وليس في الولايات المتحدة.

واصلت أنا وجبرا الالتقاء حينما وحيثما سمحت رحلاتنا المختلفة. وأتذكره مقبلاً إلى القاهرة في إحدى المناسبات، حيث مضى يحدثني كيف أصبحت الحياة صعبة في العراق. وبدا أن راتبه التقاعدي لم تعد قيمته تتجاوز رطلين من البن، وكان يحيا على عوائد الملكية الفكرية عن إصداراته العديدة المنشورة في بيروت. وعلى الرغم من أنه كان فلسطينياً بحكم الميلاد، إلا أن العراق أصبح بمرور الأعوام وطنه، وعلى الرغم من أنه كره أشد الكره المناخ القمعي الذي خيَّم على العراق، إلا أنه لم يكن أمامه من خيار سوى البقاء هناك.

أعرف من التجربة الشخصية كم يمكن للمرء أن يشعر بعدم الارتياح على الصعيد السياسي في بغداد، عندما مضيت إلى هناك في السبعينيات مع بعض الأصدقاء من بيروت. كانت تأشيرتي توشك مدتها على الانقضاء، وأراد أصدقائي مواصلة البقاء وقتاً أطول، ولذا اقترحوا أن أمضي إلى المكتب المخصص، وأقوم بتمديدها. وحذروني قائلين: «لكن لا تنطلق كلمة عربية واحدة!». وصلت إلى المكتب، ووجدت أن تمديد التأشيرة ليس بالأمر اليسير. فقد سُئلت عما إذا كنت قد زرت العراق من قبل، ورددت على ذلك بأنني زرت العراق أول مرة في ١٩٤٩، وعندئذ أصرَّ المسؤول على مراجعة الملفات. سأل عن اسم عائلتي، فرددت: «جونسون ديفز»، فحملق فيَّ مشدوهاً. وسأل مجدداً بصوت عال: «اسم عائلتك؟». كررت ما سبق لي قوله. صاح باللغة العربية محدِّثاً زملائه: «هل يمكنكم تصور أنني أواصل سؤال هذا الرجل الحمار عن اسم عائلته فيعطيني اسمين!». فانبعثوا يضحكون. كرَّر السؤال مجدداً، كلمة فأخرى كما لو كان يخاطب أحد البلهاء. عندئذ أوضحت له بأفضل طريقة استطعتها أن اسم عائلتي يتصادف أنه مؤلف من اسمين. أنزل الملفات التي تتضمن كل الأسماء التي تبدأ بحرف «ج». وبينما واصل النظر في الصفحات، مضى موغلاً في تعقيب لا ينقطع باللغة العربية على هذا «الرجل الحمار»، الذي قال إنه زار البلاد منذ أكثر من عشرين عاماً. وحينما لم يستطع العثور على شيء في الملفات التي تبدأ بحرف «ج»، أنزل الملفات التي تبدأ بحرف «د»، وتكرر الإجراء نفسه والتعليق السفيه عينه، مع القهقهة المفعمة بالتقدير له من جمهوره. وبعد أن فشل في العثور على اسمي تحت الحرف «د» عن عام ١٩٤٩، سألني كيف تأتَّى أنني زعمت أنني زرت العراق في ١٩٤٩ ومع ذلك

فليس هناك شيء وارد في السجلات بهذا الخصوص؟ جعل الأمر يبدو كما لو أنني أُدلي بزعم كاذب. حاولت أن أوضح أنني لست مسؤولاً عن حفظ القيود في السجلات، فاتخذ مظهر مسؤول يجد نفسه في مواجهة مفاجئة مع شخص إما أنه لا تنقصه البلاهة أو أنه مجرم، وأخرج استمارة كبيرة طلب منى القيام باستيفاء بياناتها، لكي يستطيع أن يقرر ما إذا كان سيمدِّد تأشيرتي من عدمه. وأوضحت لي نظرة واحدة ألقيتها على الاستمارة أنني لن أستطيع استيفاء بياناتها بأي حال من الأحوال، ذلك أنها بالإضافة إلى الاستفسار عن مكان وجود جدي وغيره من الأقارب البعيدين وأين ولدوا ومتى كان ذلك، فقد اقتضت مني أن أذكر اللغات الأجنبية التي أعرفها ودرجة إجادتي الحديث والقراءة والكتابة بها. ولو أنه كان هناك على الإطلاق موقف يصادر بعض عناصره على البعض الآخر لكان هو هذا الموقف! قلّبت الاستمارة، وألقيت نظرة على ساعتي، ثم أعدت الاستمارة إلى الرجل، قلت له: «لا أهمية للأمر. وليس هناك معنى للبقاء أكثر من هذا في بغداد. سأغادر البلاد غداً». عند هذا لانت عريكة الرجل، وقام بتمديد تأشيرتي، من دون ملء استمارات.

في إحدى زيارات جبرا للقاهرة، أبلغته بأني بسبيلي إلى إلقاء كلمة موجزة عن الترجمة، فهل يود الحضور؟ قام بذلك، وبرهن على أنه عضو مفيد من أعضاء الجمهور، فالمحاضرة التي ألقيتها في الجامعة الأميركية بالقاهرة حضرها، في المقام الأول، أناس من الجامعات الأخرى بالعاصمة المصرية. وخلالها أبديت رأياً خاصاً بي، قوامه أن المترجم ينبغي، على وجه العموم، أن يقصر أنشطته على الترجمة إلى لغته الأم. وعندما حلَّ وقت إلقاء الأسئلة، احتج العديد من الأشخاص في صفوف الجمهور على إشارتي إلى أن المرء لا ينبغي أن يترجم إلا إلى لغته الأم، وذهبوا إلى القول: «من الذي يمكنه أن يعرف لغة ما أفضل من الآخر.. أهو من ولد ليجد نفسه في رحابها أم من اكتسب المعرفة بها من الكتب؟» وذهبت بدوري إلى القول إن المرء باعتباره مترجماً إذا وجد نفسه حيال شيء في النص لا يحس بأنه على يقين مما يتعلق به، فإن بمقدوره على الدوام السعي إلى المساعدة من شخص تلك لغته الأم، بينما من المؤكد أنه أمر ضروري أن يحس المرء في تعامله مع اللغة التي يترجم إليها بأنه في داره. غير أنني استطعت أن أتبين أن حججي لم ترض الكثير ممن هم في صفوف الجمهور،

وأحسست بالارتياح عندما انبعث جبرا واقفاً، وطلب من الشخص الذي يتولى رئاسة الاجتماع أن يسمح له بالإجابة عن السؤال نيابة عني، ثم أشار إلى أنه نشر شعراً ورواية بكاملها بالانجليزية، وأنه ترجم مسرحيات عدة لشكسبير وكتابات أخرى من الانجليزية إلى العربية، غير أنه لم يخطر بباله قط إن يترجم شيئاً من العربية إلى الانجليزية، ولا حتى كتاباته. واختتم حديثه بالقول: «إنني أترك ذلك لصديقي دنيس». وبعد مثل هذه العبارة كان من الصعب على أي أحد المجادلة ضد آرائي في الترجمة.

لدى وصول جبرا في زيارته الأخيرة إلى القاهرة، مضيت للقائه في الفندق، وسألته ببراءة: «كيف الأحوال في بغداد؟» فالتفت إلى أركان الغرفة، حيث كان معتاداً على تعرض الغرف لبث أجهزة التنصت فيها، وخرجنا إلى حيث الهواء الطلق، قبل أن يرد على سؤالي. وبعد ذلك بأشهر عانى جبرا إبراهيم جبرا، في بغداد، من أزمة قلبية أخرى، كانت هذه المرة قاتلة.

خلال بروفات المسرحية الدعائية «قهوة الحرية» في القسم العربي، دائرة الشرق الأدنى بهيئة الإذاعة البريطانية في أكتوبر ١٩٤١ . من اليسار إلى اليمين الشيخ محمد محمود جمعة (مدرس المؤلف في مدرسة الدراسات الشرقية)، محمد الغزاوي (منتج المسرحية)، عيسى خليل الصباغ (الذي أصبح مراسلاً حربياً معتمداً، وعمل في وقت لاحق في إذاعة «صوت أميركا»)، أحمد طاهر، المؤلف، إدوارد عمون.

مع جبرا إبراهيم جبرا في لندن في أواخر الستينيات

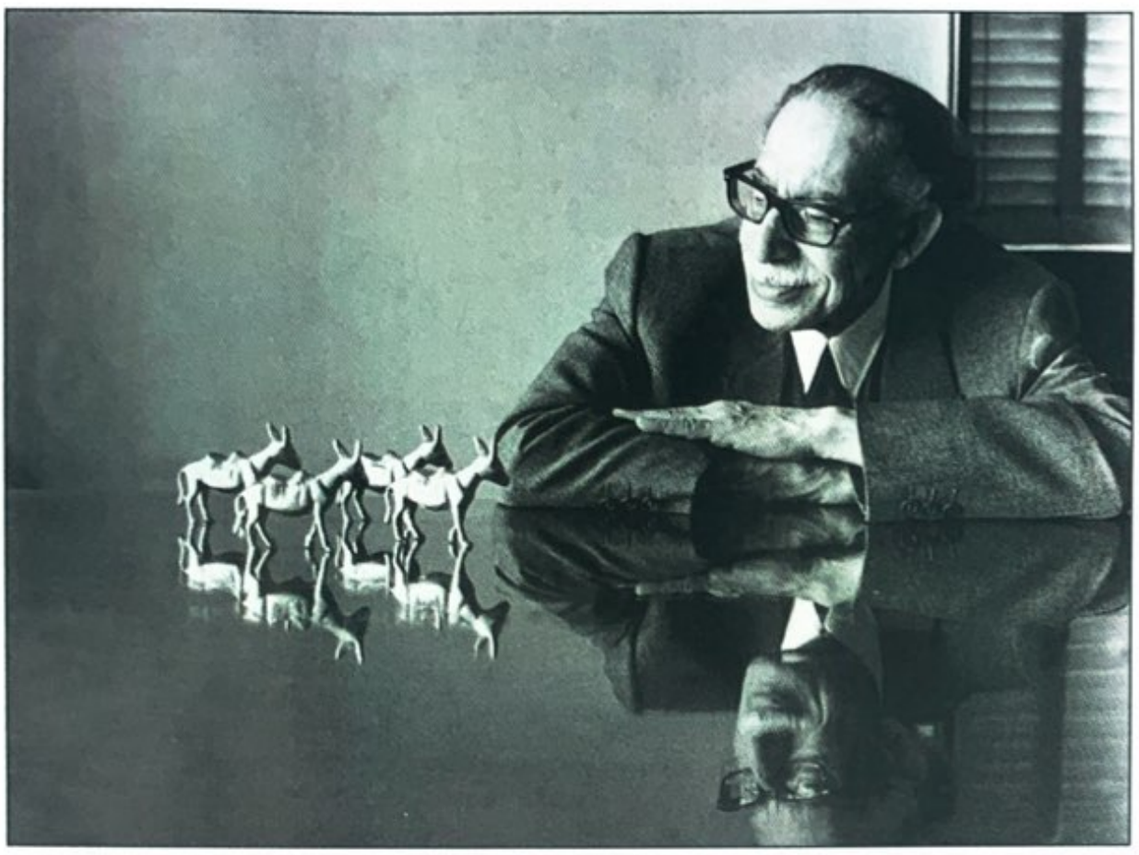

توفيق الحكيم. والإهداء على ظهر الصورة وهي موقعة بالعربية والانجليزية ومؤرخة في ١٩٧٣ . تصوير: محمد يوسف.

المؤلف في بغداد عام ١٩٤٩.

بلند الحيدري، الشاعر العراقي، في بغداد ١٩٤٩.

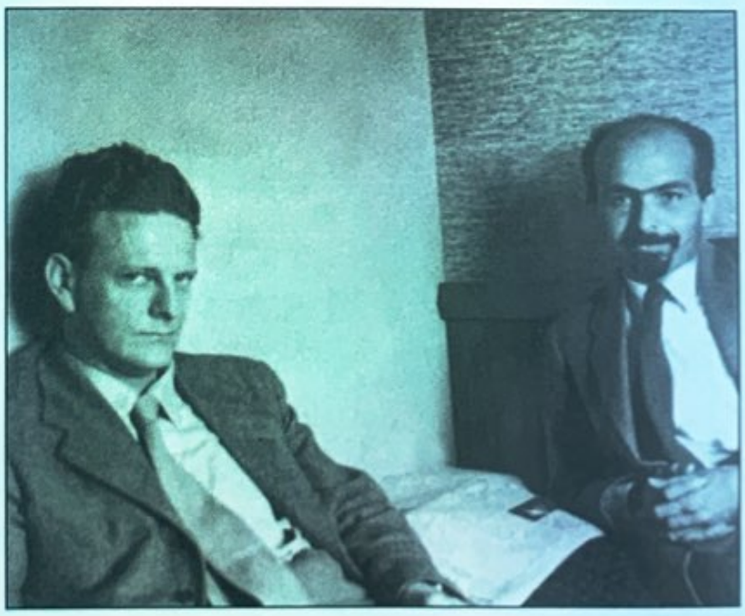

مع توفيق صايغ، الشاعر الفلسطيني، في لندن في أواخر الستينيات.

مع نجيب محفوظ، الفائز المصري بجائزة نوبل للأدب في داره في ١٩٩٦ . تصوير: باولا كروشياني.

المؤلف خلال العمل في داره بالفيوم في مصر. تصوير: باولا كروشياني.

يحيى الطاهر عبدالله (إلى اليسار) الكاتب وصديق المؤلف.

مع عبدالسلام العجيلي في حلب في سوريا. تصوير: باولا كروشياني.

مع الكاتب والناقد محمد برادة في القاهرة. تصوير: باولا كروشياني.

مع إبراهيم صموئيل في داره بدمشق. تصوير: باولا كروشياني

مع عزالدين إبراهيم في أبوظبي. تصوير: باولا كروشياني.

مع الطيب صالح في حفل جائزة ميدالية نجيب محفوظ للأدب في الجامعة الأميركية بالقاهرة. تصوير: باولا كروشياني.

مع سعيد الكفراوي في دار المؤلف بالفيوم في مصر. تصوير: باولا كروشياني.

مع محمد البساطي في دار المؤلف في الفيوم في مصر. تصوير: باولا كروشياني.

مع عبده جبير في دار المؤلف في الفيوم في مصر. تصوير: باولا كروشياني.

مع يوسف أبو ريه في مكتبة الجامعة الأميركية بالقاهرة في الزمالك في القاهرة. تصوير: باولا كروشياني.

مع محمد المخزنجي في مطعم بالقاهرة. تصوير: باولا كروشياني.

مارك لينز، سلوى بكر، سعيد الكفراوي والمؤلف في حفل عشاء الذكرى الأربعين لدار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة في عام ٢٠٠٠

مع محمد المر في أبوظبي. تصوير: باولا كروشياني

مع حنان الشيخ في شقتها في لندن. تصوير: باولا كروشياني.

مع أميرة أبو المجد في معرض فرانكفورت للكتاب في عام ٢٠٠٤ . تصوير: باولا كروشياني.

مع إدوارد الخراط في معرض فرانكفورت للكتاب في عام ٢٠٠٤ . تصوير: باولا كروشياني.

١١

عندما كنت أحتاج إلى وظيفة أخرى، كنت أعود إلى لندن قبل الخروج منها إلى الشرق الأوسط من جديد. ولكن جاء الوقت الذي قررت فيه شركة النفط الأميركية التي كنت أعمل مندوباً لها في قطر الانسحاب من العمل، ومضيت من جديد أبحث عن عمل، ولكن في هذه المرة لم تفلح معرفتي باللغة العربية في تأمينه لي. وكنت أنا الملوم في هذا الصدد، إلى حد كبير، حيث أنني رفضت في عناد أن ألزم نفسي بأي شيء يبدو كما لو كان يمنحني مهنة لها ضوابطها وقيودها. وكنت قد رفضت بالفعل عرضاً في قطر للالتحاق بشركة شل، ومنذ وقت طويل رفضت احتمال اتخاذ الخدمة بوزارة الخارجية مهنة لي، بل إنني لدى عودتي من قطر تقدمت للحصول على وظيفة مندوب في الشرق الأوسط لشركة ماكس فاكتور، ولكنه بعد المقابلة الأولى بدا جلياً للجانبين أن ارتباط عمل بيننا لن يكون رابطة سعيدة. وهكذا، في غمار الإقامة في لندن والعجز عن العثور على وظيفة في الشرق الأوسط، أقنعني أبي بمواصلة دراستي للحقوق. وقد قمت بهذا عن طريق المراسلة، وهي ليست بالطريقة المثالية لتحبيب المرء في أي شكل من أشكال التعلم.

تأكد لي كرهي للعيش في انجلترا وليس في مصر، على سبيل المثال، بعد وقت قصير من عودتي في ١٩٥٤، حيث مررت ذات صباح بالكشك الذي كنت أبتاع منه يومياً علبة سجائري (الحمدلله أن ذلك لم يعد من متطلباتي). رحت أفتش في جيوبي، فوجدت أنني قد غيرت بدلتي، وليست معي نقود. قلت للبائعة: «سأدفع لك غداً». ومددت يدي لتلقي علبة السجائر، ولكنها كانت أسرع مبادرة مني، ونحَّت السجائر بعيداً. وأفصح لي هذا عن أنني لم أعد في مصر.

بقيت في لندن من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٩. وخلال أوائل ذلك الوقت اجتزت امتحاناتي في الحقوق، واشتغلت بالمحاماة. وبينما لم يواكبني الإخفاق في عملي، إلا أنني لم أكن سعيداً بوضع الشعر المستعار وارتداء روب المحاماة، ثم أنشأت شركة أطلقت عليها اسم «خدمات الشرق الأوسط». وقد بدأت كمكتب ترجمة، حيث لا تقوم بشيء إلا بإنجاز الترجمات عن اللغة العربية. وكنت أقوم بصفة أساسية بترجمة الوثائق القانونية والتجارية، وليس هناك ما هو أكثر تدميراً للروح من ذلك. ولكن سرعان ما أتيحت لي فرصة لإصدار مجلة أدبية دورية أسميتها «أصوات». وهكذا أصبح مكتبي بمثابة دار من الوطن للكتاب العرب الذين يزورون لندن.

كنت قد تبادلت المراسلات لبعض الوقت مع الشاعر العراقي بدر شاكر السياب، وهو أحد قادة حركة التحديث في الشعر العربي. وقد كان مناهضاً للشيوعيين بقوة، وكتب لي في وقت مبكر رسالة ينتقدني فيها لابراز بيكاسو في العدد الأول من «أصوات»، وقد ساهم في المجلة، في وقت لاحق، بقصائد عدة، من بينها قصيدته الشهيرة عن جميلة بوحريد، الشابة التي عذَّبها الفرنسيون في الجزائر. وفيما بعد، عقب لقائنا في لندن، ساهم بالعديد من القصائد القصيرة، التي قارن فيها مصيره بمصير أيوب، حيث كان عاجزاً أمام المرض القاسي الذي يستنزف العافية من جسمه.

تلقيت، ذات صباح، اتصالاً هاتفياً منه، يعلن فيه أنه قد وصل إلى لندن، وأنه ينزل في فندق كمبرلاند. ولما كان مكتبي يقع في شارع صغير خلف متجر سلفردج، فإن فندق كمبرلاند كان قريباً، ودعوته لزيارتي في المكتب في أي وقت يناسبه، ولكنه أصرَّ على قدومي إلى الفندق، فوافقت على المضي سيراً على الأقدام إلى الفندق، عندما أفرغ من عملي. سألت في مكتب الاستقبال بالفندق عن رقم غرفته، ومضيت إليها

بالمصعد. وقمت بالضغط على زر جرس غرفته مرات عدة، و كنت على وشك النزول، معتقداً أنني ربما كنت قد أُعطيت رقماً غير صحيح. ولكنني قمت بالضغط على زر الجرس مجدداً، وفتح الباب، فقد استغرق بدر كل هذا الوقت للوصول إلى الباب. أوضح لي جلية الأمر بالنسبة للمرض الشديد الذي كان يعاني منه، والذي كان قد استشار بشأنه كل أطباء بيروت وغيرها من المدن، فهل أعرف طبيباً جيداً؟ اصطحبته بعد يوم أو نحو ذلك إلى طبيبي، جيمس بيفن James Bevan ولكن الحكم كان هو ما سمعه بالفعل من أطباء أخرين. حُجز له سرير في مستشفى ميدلسكس، حيث أُجريت له سلسلة من الاختبارات المؤلمة التي أُخضع لها عموده الفقري. وأشار لي جيمس بيفن إلى أن بدراً بمقدوره أن يتقبل الحقيقة القاسية، بدلاً من خداعه بالآمال الكاذبة، وهكذا تم إبلاغه بأنه مصاب بمرض مقعد على نحو لا علاج له يؤثر على عموده الفقري، وانه لا ينبغي أن يهدر الوقت والمال بالقيام بجولات على المزيد من الأطباء. وبعد أيام قلائل تحامل على نفسه، وسافر إلى الكويت، حيث مات عن ٣٩ عاماً. وقد عثرت ، مؤخراً، على رسائل عدة من رسائله وقصيدة أو اثنتين بخط يده. وحدّثت نفسي بأن صديقي العراقي خالد المعالي، الذي يقيم في ألمانيا، قد يكون مهتماً بالحصول عليها، وقد نُشرت بالفعل في مجلة «عيون » التي يصدرها.

غسان كنفاني كاتب آخر من الكتاب الذين نشرت أعمالهم في مجلة «أصوات»، وقد ربطتنا الصداقة في البداية، ليس من خلال اللقاء، وإنما عبر تبادل الرسائل. وأتذكر أنه سألني بصورة محددة عما إذا كان يمكن أن نتبادل الرسائل، حيث أنه بحاجة إلى من يتبادل معه الأفكار بشأن الكتابة، وتم الاتفاق على أن يكتب لي بالعربية، وأن أرد عليه بالانجليزية.

وكانت رسائله لي مكتوبة باليد، بخط منسق وواضح بصفة خاصة، بينما كانت رسائلي إليه مكتوبة على الآلة الكاتبة بالضرورة، وذلك بسبب خطي الذي تستحيل قراءته في بعض الأحيان. وبعد سنوات عدة التقينا للمرة الأولى، وكان ذلك في فندق كليوباترا بالقاهرة. وكنت مع إبراهيم شكر الله عاكفين على تجاذب أطراف الحديث باللغة العربية. وفيما دخلنا بهو الفندق، انبعث شاب وسيم واقفاً، ربما لسماعه شخصاً يبدو أنجليزياً بصورة جلية وهو يتحدث العربية، وأقبل نحوي، وقال: «لابد أنك دنيس.. أنا غسان».

في وقت لاحق فحسب، في عام ١٩٧٠، عندما غادرت دبي، ومضيت للإقامة في بيروت، عرفت غسان بصورة أفضل. وكنا في بعض الأحيان نتناول الطعام في مقهى مقابلة تماماً لمدخل الجامعة الأميركية في بيروت. وكنت أعرف أنه منخرط بعمق في النضال من أجل فلسطين، ولكن حوارنا كان يدور في كل الأحوال حول الأدب وآماله فيما يتعلق بالكتابة بالعربية. وقد ساهم في مجلة «أصوات» بقصة قصيرة، وقمت بإدراج قصة قصيرة له في مجموعة القصص القصيرة العربية التي نشرتها دار نشر جامعة أكسفورد. وقد استمدت قصة «موت السرير رقم ١٣» من مرحلة مبكرة في حياته، عندما كان يقيم في منطقة الخليج، وأُعيد نشرها في وقت لاحق في مجموعة من القصص القصيرة في الولايات المتحدة، حيث وصف الكاتب بأنه من الأردن، وذلك على الرغم من أنني في «ملاحظات حول المؤلفين» ذكرت بصورة قاطعة أنه فلسطيني.

ترجمت قصة أخرى بقلم غسان – استمد الهامها كذلك من الفترة التي أمضاها في الكويت – بعنوان «حصن العبيد» وأدرجتها في مجموعتي الثانية من القصص القصيرة من العالم العربي التي أصدرتها دار كوارتيت. وعندما أعادت دار نشر جامعة كاليفورنيا إصدار هذا المجلد في الولايات المتحدة، ظهر مصحوباً بمقدمة بقلم مستشرق معروف، استهلها بتقرير أن أسماء الكتاب قد تم إيرادها بشكل غير صحيح، ثم قدم عمودين أحدهما يتضمن الأسماء كما تظهر في المجلد، والعمود الثاني يشمل الأسماء حسبما ينبغي أن تُكتب وفقاً لرؤيته. وبدا الأمر كما لو أنني، أنا المترجم، لم أعرف القواعد المتعلقة بنقل الحروف العربية بحسب نطقها إلى اللغة الانجليزية. هكذا فإننا نجد أن الطيب صالح - Tayeb Salih الذي اختار أن يكتب اسمه بهذه الطريقة – يقدم على أنه at- Tayyib Salih في العمود الثاني. وكل ما يوضحه هذا هو أن مثل هؤلاء المستشرقين يبدو أنهم يعتقدون أن القراء الوحيدين المحتملين للأعمال المترجمة عن العربية هم دارسو هذه اللغة. وهكذا فإنهم مصممون على الابقاء على الأدب العربي الحديث في خزانة أكاديمية أطول وقت ممكن. ومن ناحية أخرى، فإنني لا أعتقد أنه مما له أي أهمية أن اسم الطيب Tayeb هو على نحو ما اختار أن يكتبه أو ما إذا كان ينبغي أن يكتب وفقاً لقوانين نقل أصوات الحروف الصارمة .at-Tayyib وقد اعتاد القراء الآن على كاتب يدعى Naguib Mahfouz

ولكن الأكاديميين يودون بدلاً من ذلك أن يقدموا لهم شخصاً يدعى Najib Mahfuz

كنت أنا وغسان ذات مساء ننطلق بالسيارة في أرجاء بيروت، عندما أوقفتنا دورية للشرطة، فحذرني قائلاً: «لا تتحدث بالعربية!». والحقيقة المحزنة تبينت لي، وقوامها أن المرء يمكن أن يكون موضعاً للتشكك، إذا تصادف أنه يعرف اللغة العربية كأجنبي في العالم العربي. وهناك أوقات ينبغي على المرء فيها أن يدع الآخرين يعرفون أنه يعرف اللغة العربية، وهناك أوقات أخرى يتعين عليه ألا يفعل ذلك. وفي معظم الحالات ينبغي على المرء في المطار أن يحجب عن الآخرين معرفته باللغة العربية، وأن يكتفي بالحديث بلغته الأم. وفي إحدى المناسبات أحضرت معي من دبي سخاناً كبيراً للماء لتركيبه في شقتي بالقاهرة. فيما كنت أمر برجال الجمارك، سُئلت عما عساه يكون هذا الجهاز، فأجبت: «إنه سخان للماء» ثم أضفت بصوت «انجليزي» للغاية: «إنه شيء يركبه المرء في حمامه، فيقدم له ماء ساخناً فورياً». أدرك مسؤول الجمارك في التو أنه غير قادر على فهم حديث هذا الانجليزي طويل اللسان بلكنته الغريبة، فسارع بالاشارة لي بالمرور، وقال بانحناءة: «مرحباً بك يا سيدي!»، ثم التفت إلى زميله قائلاً: «هؤلاء السياح.. الله وحده يعلم ما الذي يفعلون بكل هذا الذي يحضرونه معهم!». وكان صديق عربي لي والدته فرنسية ويسافر بجواز فرنسي يستمتع بمشاهدة الأفلام الإيروتيكية، وكان يحضر العديد منها على الدوام عندما يعود إلى موطنه في القاهرة. وذات مرة لوَّح سريعاً بجوازه الفرنسي، وحيا مسؤولي الجمارك باللغة الفرنسية، فُسمح له بالدخول على عجل، ولكن لسوء حظه تصادف أن رآه صديق مصري له، وهو يمضي في طريقه خارجاً، فحياه باللغة العربية، وفي التو تمت إعادة صديقي وفُتشت أمتعته.

مع هذا، فإن هناك بالتأكيد أوقاتاً تكون فيها معرفة اللغة العربية، من قبل شخص يبدو من مظهره بوضوح أنه انجليزي، أمراً مفيداً. ففي عام ١٩٤٩ كنت في طريقي عبر القاهرة إلى طهران، ونزلت ليال قليلة في فندق كوزموبوليتان ذي التكلفة غير الباهظة. وفي ذلك الوقت كان يتعين على كل الأجانب، حتى ولو كانوا يمرون مروراً عابراً، أن يسجلوا بياناتهم لدى الشرطة. وبينما كان الفندق قد قدم لي الاستمارة المناسبة لذلك، فإنني نسيت المسألة برمتها، ثم أبلغني الرجل الجالس في مكتب

الاستقبال بالفندق أن شرطياً قد جاء للاستفسار، وإنني ينبغي أن أمضي إلى أقرب قسم للشرطة، فأخذت سيارة أجرة إلى قسم الشرطة. وتم إبقائي منتظراً لبعض الوقت، وكنت أقف أمام ضابط شرطة خاطبني بالانجليزية، وأوضحت له، بهذه اللغة، أنني آسف للغاية لنسيان تسجيل بياناتي، وهلمجرا. وفي تلك اللحظة أطل سائق السيارة الأجرة، الذي كنت قد طلبت منه الانتظار، وأبلغني باللغة العربية أنه يبدو أنني سأبقى هناك بعض الوقت، وأن عليه أن يمضي لشأنه، فدفعت له أجرته. رمقني الضابط في التو بنظرة دهشة ممزوجة بالود، وأمر بإحضار مقعد لي. وأجبت على هذا، من وحي اللحظة بقولي: «تكرسلي بأه؟». وبينما يمكن أن يعني هذا القول ببساطة: «هل تقدم لي كرسياً لأجلس عليه؟»، فإن التعبير نفسه هو الذي يستخدمه مدخنو الحشيش ليقصدوا به القول: «هل تضع لي قطعة من الحشيش على الجوزة؟». وقد تصادف أنني كنت قد اهتممت بأساليب الحديث التي يستخدمها مدخنو الحشيش والشعر الذي كتب عن هذا المخدر، وهي الأساليب التي كانت شائعة الاستخدام في ذلك الوقت. وكان تأثير الكلمات التي قلتها أقرب إلى الصدمة الكهربائية، حيث لطم الضابط جبينه كمؤشر على عدم التصديق، وقام في التو بتمزيق الاستمارة التي كان يستوفي بياناتها، في غمار إصدار الأمر لي بالمثول أمام المحكمة. وبعد أن سألني عن الكيفية التي أود أن يتم بها إعداد قهوتي لي، أمضى نصف الساعة التالية في الحديث معي عن مدى ارتفاع سعر الحشيش الجيد حقاً.

في مناسبة أخرى، كنت مسافراً على متن إحدى طائرات شركة طيران الشرق الأوسط، ونزلت في بيروت لأجد أن إحدى حقائبي مفقودة. فمضيت إلى مكاتب الشركة، وشكوت إلى الفتاة الجالسة إلى المكتب. فلم تبد اهتماماً يذكر بمشكلتي. وبينما كنا نتحدث (بالانجليزية) أقبل رئيسها وسألها، بالعربية، عن طبيعة المشكلة، فردت قائلة: «الزلمة عم ياكل هوا»، وهو ما يعني أنني أضيع وقتي هدراً. وعندما انصرف رئيسها سألتها «إذن فأنا آكل هوا؟». وتم العثور على حقيبتي بسرعة خاطفة!

كان غسان كنفاني مؤثراً في الإصرار على قيامي بتولي ترجمة بعض المختارات من شعر محمود درويش، الشاعر الأول في المقاومة الفلسطينية. وفي عام ١٩٧٤ تناولنا نحن الثلاثة طعام الغداء في مطعم البرمكي بوسط بيروت. وقد اقتضت هذه

المهمة مني أن أقرأ كل الشعر الذي كان درويش قد كتبه حتى ذلك الحين للاختيار منه، وأن أكتب مقدمة للمختارات. وحتى في تلك الأيام المبكرة غالباً ما كان شعر درويش غامضاً، وساعدني في فهم الكثير من الأبيات الأكثر صعوبة إلياس خوري، الكاتب اللبناني الذي ارتبط بالنضال الفلسطيني وبالكتابة الفلسطينية. وقدّر لي في وقت لاحق أن أترجم جزءاً من إحدى روايات إلياس خوري الأولى، وأن أنشرها في مجلة «أزور» الأدبية ذات التمويل الليبي (التي كان يتم تحريرها في لندن). ونشرت مجموعة مختاراتي من شعر درويش تحت عنوان: «موسيقى اللحم البشري» وهي عبارة مستمدة من إحدى القصائد. وكانت تلك هي مغامرتي الأولى والوحيدة في مجال ترجمة الشعر، حيث ساورني الشعور بأن الأمر يقتضي شاعراً لترجمة الشعر. وقد أسعدني لاحقاً أن أجد أن العديد من ترجماتي قد أُدرجت في مجموعة أميركية بعنوان «كتاب فينتاج للشعر العالمي المعاصر».

خلال ذلك الوقت الذي أمضيته في بيروت، حمل لي أحدهم من القاهرة نسخة من رواية بعنوان «تلك الرائحة»، وهي الرواية الأولى لصنع الله إبراهيم. ولم تكن تزيد على رواية قصيرة مما يعرف بـ «النوفيلا»، ولكنها أثرت في، منذ الوهلة الأولى. وقد تضمنت هذه الرواية مشهداً أو مشهدين صريحين، ومن ثم فقد بادرت السلطات المصرية إلى حظرها ومنع تداولها. وقمت بترجمتها تحت عنوان The Smell of It ونُشرت جنباً إلى جنب مع قصص قصيرة عدة مبكرة للكاتب في مجلد شيق في سلسلة «مؤلفون عرب». وقدّر لصنع الله إبراهيم أن يصبح أحد الروائيين البارزين في مصر.

كان غسان، شأن أي كاتب عربي آخر، يدرك مدى أهمية ترجمة أعماله، وأعتقد أنه كان حريصاً على أن أقوم بترجمة روايته «رجال في الشمس». ولم أجد الوقت ولا الفرصة للقيام بذلك، لكن شخصاً آخر أنجز ترجمتها بصورة ملائمة تماماً. وقد أحسست بأن غسان في تلك المرحلة لم يكن قد وصل إلى طاقته الكاملة بعد، وانه بمرور الوقت سيقدم عملاً أطول سأرغب في ترجمته. ولم يقدّر لذلك أن يتحقق. وكنت بصحبته قبل ليلتين من عودتي إلى لندن. وكنت أجلس وحيداً في قاعة بالمطار، ولاحظت أن العديد من الفلسطينيين الذين أعرفهم كانوا هناك. وقبل أن أستقل

الطائرة، سادت حالة من الغدو والرواح بمزيد من الانفعال والهياج في صفوف الفلسطينيين، ولم أكتشف السبب في هذا إلا عندما وصلت إلى لندن وقمت بتشغيل التلفزيون، حيث كان أول خبر في النشرات هو جريمة قتل غسان كنفاني، مع ابنة أخته الشابة، حيث قُتلا بقنبلة وضعت تحت سيارته، في وقت سابق من صباح ذلك اليوم في عام ١٩٧٢ .

١٢

خلال إقامتي في لندن فيما بين عامي ١٩٥٤ و١٩٦٩، تعرفت بالطيب صالح. وعلى الرغم من أننا كلينا قد عملنا بالقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطاني، إلا أن ذلك لم يحدث بصورة متزامنة قط. وأحسب أن أول قطعة من كتاباته قرأتها كانت القصة القصيرة التي تحمل عنوان «دومة ود حامد»، وقد تقدم بها للنشر في مجلة «أصوات»، وأدهشني في التو الأسلوب السلس والحس بالفكاهة الكامن فيها، وكانت من منظوري عملاً أدبياً ممتازاً. وفي التو طلبت من صديقي وزميلي السابق في هيئة الإذاعة البريطانية الفنان المصري عبدالسلام علي نور إنجاز بعض الرسوم الإيضاحية لها، وأبدع من وحيها ثلاث رسمات باللونين الأبيض والأسود، عكست على نحو مثير للإعجاب مناخ القصة، التي كانت تتناول قرية على ضفاف النيل تعرض فيها القرويون – والزوار – للمداهمة من قبل الذباب الصغير. وكنت قد علقت الآمال دوماً علي أن أقوم بترجمة قصة عربية وأنشرها في مجلة «إنكاونتر». وبعد أن فرغت من ترجمة هذه القصة بادرت إلى وضعها في مغلف، وبعثت بها إلى المجلة، ولم يكن من قبيل المفاجأة بالنسبة لي أنها قُبلت للنشر، وفي وقت لاحق نشرت قصتين أخريين من قصص الطيب صالح في المجلة عينها.

قرأت، عقب ذلك، رواية قصيرة للطيب صالح بعنوان «عرس الزين»، وهي حكاية عن الحياة في قرية سودانية، وجدتها عملاً ناجحاً كلية من أعمال القص، فبادرت في التو بترجمتها، وقد عرضها بحماس كاتب لا يقل في شموخ قامته عن أي عملاق آخر، هو الروائي كنجسلي إيميس Kingsley Amis وفي وقت لاحق قام مخرج كويتي بتحويل هذه الرواية القصيرة إلى فيلم، أدّى فيه إبراهيم الصلحي، الفنان الذي رسم غلاف كتاب «قصص قصيرة عربية حديثة» الذي أصدرته أكسفورد - أدّى بحرفية نادرة دور إحدى الشخصيات الرئيسية، وهي شخصية الدرويش الذي يحظى بمكانة محورية في حياة القرية.

ثم أتى يوم أبلغني فيه الطيب أنه يشرع في كتابة رواية جديدة أكثر طموحاً. وقد كُتبت بخط اليد، وكنت أتلقى كل بضعة أيام في مكتبي رزمة من الورق، هي حلقة جديدة في الرواية. وسرعان ما انتهت الرواية، التي حملت عنوان «موسم الهجرة إلى الشمال» مع اكتمال الترجمة في الوقت ذاته تقريباً. وكان الطيب متردداً فيما يتعلق ببعض الفقرات الإيروتيكية المتضمنة في الرواية، على الرغم من أنه لم يكن في هذه الفقرات شيء من شأنه أن يثير ضيق قارئ إنجليزي. وقرَّر بالفعل أن يسقط فقرات معدودات من النص. وقد فكرنا لبعض الوقت في إدراج هذه الفقرات في الترجمة الانجليزية، ولكننا قررَّنا محقين العدول عن ذلك، فبينما ليس بالأمر غير المعروف أن يحذف المترجمون فقرة عرضية من النص - ربما لأنهم لم يفهموها تماماً - فإنه سيكون أمراً فريداً من نوعه تماماً أن يضيف مترجم بعض الفقرات التي لا وجود لها في الأصل. وفي مكان ما بين أوراقي توجد لديَّ هذه الفقرات، مكتوبة بخط الطيب صالح في ورقتين. وربما ستجدان، ذات يوم، طريقهما إلى صالة مزادات لتباعا، لقاء مبلغ جسيم، إلى مليونير يحرص على اقتناء مثل هذه الأشياء المثيرة للفضول! وحتى بدون الفقرات موضع الجدل فإن الرواية جوبهت باستياء في العديد من الدوائر، ومن بينها الحكومة السودانية، التي قررت حظرها. وكنت على يقين من أن لديَّ في هذه الرواية عملاً من أعمال القص العربي ينبغي أن يكون بمقدوره أن يجد مستقراً له لدى ناشر لندني بارز، وليس في سلسلة مكرَّسة للكتابات العربية الحديثة، ولكنني لم تكن لدى الاتصالات الضرورية ولا الوقت والصبر على إرسال المخطوط إلى الناشرين

المختلفين، وكان من الأيسر بكثير القيام بنشر هذا العمل في سلسلة «مؤلفون عرب» التي كنت قد أسستها.

من الغريب أنني، بعد خمسة عشرة أو عشرين عاماً، قمت بترجمة عمل آخر من أعمال القص من إبداع الطيب صالح بعنوان «بندر شاه». وجربت تقديم هذا العمل الجديد إلى توم ماشلر Tom Maschler المحرر الشهير بدار جوناثان كيب، فأبلغني بأنه أحب «بندر شاه» بما يكفي، ولكنني لو كنت قد قمت بإرسال مخطوط «موسم الهجرة إلى الشمال» عندما ترجمت هذا العمل فإنه، حسبما أشار، كان سيتبناه في التو، وكان سينشر منذ ذلك الحين باقي أعمال الطيب صالح تحت علامة جوناثان كيب. كلمات جميلة. مما له أهميته أن الأمر قد اقتضى فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل في الأدب، قبل أن يستطيع كاتب عربي الوصول إلى قائمة ناشر ينتمي إلى التيار الرئيسي لحركة النشر، وحتى الآن فإن جمهور القراء البريطاني لم يتقبله على نحو ما تقبله الأميركيون.

نُشرت رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» في ترجمتها الانجليزية في ١٩٦٩، وكان العديد من النقاد اللندنيين كرماء في إشادتهم بها. وقامت جيل نيفيل Jill Neville عارضة الكتب لصحيفة «الصنداي تايمز» بصفة خاصة باختيار الكتاب «رواية العام». وقد تصادف أن كنت في لندن، في ذلك الوقت، وأتذكر أنني مضيت إلى مكتبة هاتشرد في بيكاديللي للسؤال عن الكتاب، متوقعاً أن أجد نسخاً منه تزّين إحدى واجهات معروضاتها. ويؤسفني القول إن الأمر قد احتاج إلى أكثر من جيل نيفيل وصحيفة «الصنداي تايمز» لكي يُنظر إلى رواية الطيب صالح باعتبارها أكثر من قطعة من الكتابة المتسمة بالكفاءة تخرج من إفريقيا. وعندما استفسرت في مكتبة هاتشرد عن الكتاب من خلال عنوانه، قوبلت بنظرة خالية من المعنى، وعندئذ ذكرت اسم المؤلف، وهو ما لم ينتزع رد فعل كذلك. أوضحت: إنه كاتب عربي. وجاءني الرد: «أوه، نعم يا سيدي. حسنا، لسوف تجده في القبو، في الأسفل». لقد اقتضى الأمر قرابة أربعة عقود من الزمن لكي تشق رواية الطيب صالح طريقها من القبو في مكتبة هاتشرد إلى إضافتها إلى سلسلة بنجوين للأعمال الكلاسيكية الحديثة. وفي السنوات التي تخللت المسافة بين هاتين النقطتين، صدرت الرواية في العديد من الطبعات ذات

الغلاف الورقي، في كل من بريطانيا والولايات المتحدة. وقد قام ناشر صغير يدعى مايكل كيسند Michael Kesend في أميركا بإصدار طبعة جديدة ذات غلاف سميك من الرواية، كتبت لها مقدمة، واحتلت المرتبة الثانية في ترتيب الأعمال المرشحة للفوز بجائزة أدبية. وبينما كانت مبيعات الرواية باللغة الانجليزية تقدَّر بمئات النسخ سنوياً، فإنها على الأقل قد ظلت في قائمة ما يصدره الناشرون، وهو ما يتجاوز ما يمكن أن يقال عن الكثير من الروايات التي نشرت منذ ذلك الوقت الطويل.

في غضون ذلك تُرجمت الرواية إلى إحدى وعشرين لغة أخرى. ومن الجلي أنه لا صلة لي بأي من هذه الترجمات، وذلك على الرغم من أنه من خلالها أُتيح لي أن أحقق فهماً للحقيقة فيما يتعلق بعالم الترجمة. فعندما قرر ناشر نرويجي إصدار الرواية، طلب إذناً من دار هاينمان باستخدام الترجمة الانجليزية، ودُفعت لي أتعاب رمزية لقاء ذلك، وعندما صدر الكتاب أُرسلت لي نسخة منه، ذُكر فيها أنه قد تُرجم نقلاً عن الانجليزية. وفي حالة الترجمة اليابانية، اتصل بي المترجم، الذي كان يعرف العربية معرفة جيدة، وسأل عما إذا كان لديَّ اعتراض على قيامه باستخدام ترجمتي. وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي قام فيها مترجم صراحة بالتقدم بمثل هذا الطلب (والذي كان من الواضح أنني سعدت للغاية بالموافقة عليه). ترى أي مترجم ذلك الذي في غمار معرفته بأن كتاباً معيناً قد تُرجم بالفعل إلى الانجليزية تتناهبه هواجس بالغة إلى حد أنه لا يلجأ إلى تلك الترجمة؟ وفي حقيقة الأمر أنه في أمثلة عدة قام مترجمون، على وجه التحديد، بالاشتغال من ترجمتي، وليس من الأصل. وفيما يتعلق بالترجمة الاسبانية لرواية الطيب صالح، فقد بدأ الناشر الاسباني بالإشارة إلى أنه يرغب في ترجمة الرواية عن الانجليزية، وكتبت لي دار هاينمان وأبلغتني بذلك، ثم غيّر الناشر رأيه، وقال إن الترجمة ستتم في نهاية المطاف عن العربية مباشرة. وعندما صدرت الرواية طلبت نسخة، ووجدت أن العديد من التغييرات الثانوية التي كنت قد قمت بها في ترجمتي – بموافقة المؤلف – قد وجدت طريقها، بصورة غامضة، إلى الترجمة الاسبانية! وتتعلق حالة أخرى صارخة على نحو أكبر بمجلد من القصص القصيرة للكاتبة المصرية سلوى بكر كنت قد قمت بترجمته. ومن بين القصص التي ضمها كانت هناك قصة كنت أنا وسلوي بكر قد أضعنا أصلها العربي. ومع ذلك فإن هذه القصة

قُدِّر لها أن تظهر في وقت لاحق في ترجمات عدة يُزعم أنها قد نقلت عن العربية!

جاء وقت أشار فيه وكيل أدبي إلى أنه ربما كان بوسعه بيع حقوق النقل إلى السينما الخاصة بـ «موسم الهجرة إلى الشمال». وكنت قد شعرت دوماً بأنه ها هنا رواية يمكن أن تشكّل فيلما لماحاً ومثيراً للاهتمام، فيلماً يمكن أن يعجب كلاً من الجمهور العربي والغربي. وأتذكر مشاهدة «تورا! تورا! تورا!»، وهو فيلم عن الهجوم الياباني على بيرل هاربور، حيث تتحدث الشخصيات اليابانية اللغة اليابانية، ويتحدث الأميركيون الانجليزية، وزود الفيلم بترجمة للحوار. وقد اعتقدت أنه قد نجح إلى حد كبير، وأحسست أن «موسم الهجرة إلى الشمال» يمكن إنتاجه بالطريقة نفسها، مع قيام ممثل عربي يعرف الانجليزية بصورة جيدة بأداء دور الشخصية المركزية. وكنت في القاهرة في ذلك الوقت عندما نوقش هذا الموضوع للمرة الأولى. ولاتزال لديَّ البرقيات التي أُرسلت إليَّ عن المبالغ المقترحة. وفي وقت لاحق كنت في قرية في سسكس، حيث كنت في وقت من الأوقات أمضى معظم عطلات نهاية الأسبوع، وتلقيت مكالمة هاتفية من شخص يرغب في مناقشة إمكانية إنجاز الفيلم. واستمرت المكالمة الهاتفية بعض الوقت، وكانت زوجتي تقاطعني بصورة متواصلة، داعية إياي لتناول طعام الغداء. وأخيراً أقبلت بعد انتهاء المكالمة، فاستفسرت عن هوية المتصل، ورددت قائلاً إنه شخص يدعى فرانكو زيفريللى. وإني لأعترف بأن هذا الاسم لم يكن يعني شيئاً لي! وعلى أية حال، فإن الأمر لم يسفر عن شيء، وذلك على الرغم من أنني علمت في وقت لاحق أن هارولد بنتر، لاغيره، هو الذي كان من المقرر أن يكتب سيناريو الفيلم. ما الذي حدث؟ لم يقدَّر لي أن أكتشف ذلك قط. وقد سمعت في عام ٢٠٠٥ أن مسرحية قد كُتبت على أساس «الموسم» لكي تقدمها في لندن شركة شكسبير الملكية أمام نخبة مختارة من الجمهور، فإذا لقيت استقبالاً طيباً، فإنها ستقدم في انتاج عام للجمهور.

إذا كان هناك عيب في الطيب، فهو أنه لم يكتب المزيد من الأعمال، فقد مرت سنوات عدة قبل أن ينشر كتابين آخرين، يتناولان بعضاً من الشخصياتً ذاتها التي كانت قد ظهرت في «عرس الزين» و«موسم الهجرة إلى الشمال»، وهذان العملان هما «مريود» و«بندر شاه». وقد أبلغني المؤلف نفسه بأنه يعتبر أنهما يتضمنان جانباً من أفضل

كتاباته، وأوافق على القول إن هذين الكتابين يتضمنان أجزاء في جودة أي شيء كتبه. وعلى الرغم من ذلك فإنني واجهت للمرة الأولى صعوبة في ترجمة عمله. بدا لي - وقد حدثته بذلك - أن الكتابين الأخيرين لا (يتماسكان معاً). فأكد لي الطيب أنه يخطط لإصدار مجلدين آخرين، وأن هذين المجلدين سيحزّمان القصة بأسرها التي أراد أن يرويها. وكان الطيب في ذلك الوقت مستشاراً بوزارة الإعلام القطرية، وقد مضيت إلى الدوحة ومكثت هناك أسابيع عدة، فيما حاولت تنظيم ترجمتي للكتابين معه. وقد تقرر أن تصدرهما في مجلد واحد كاترين الصلحي، زوجة إبراهيم الصلحي الانجليزية، والتي كانت قد أنشأت شركة للنشر. غير أنه بحلول الوقت الذي كان الكتاب جاهزاً للنشر فيه كانت شركتها قد أشهرت إفلاسها، وصدر الكتاب بالفعل عن طريق دار روتلدج أند كيجان بول، التي لم تتحمس له كثيرا، ليقابل بصمت نقدي مطبق تقريباً، وعقب ذلك بسنوات عدة، في عام ٢٠٠٤، منح الطيب صالح جائزة الرواية العربية، وهي جائزة رسمية تقدمها وزارة الثقافة المصرية، عن رواية «موسم الهجرة إلى الشمال».

عرفت، عن طريق الطيب صالح، السفير السوداني في لندن جمال محمد أحمد. وقد تخرج من جامعة أكسفورد، ويتمتع بقدر كبير من الجاذبية والظرف وبمنجزات نادرة، وأصبح في وقت لاحق وزيراً لخارجية بلاده. وكان كذلك كاتباً، له العديد من الإصدارات. وكان له اهتمام خاص بمنجزات الأفارقة في مجال الإبداع، وساهم بمقال ضاف عن «حركة الزنجية» في مجلة «أصوات».

بحلول ذلك الوقت كان قد أصبح صديقاً لي، وشعرت بأن بوسعي أن أطلب العون منه في مسألة شخصية. كان أبي، الذي عجز عن المزيد من تأجيل تقاعده كسكرتير لإحدى الهيئات التجارية المعنية بالحفاظ على مستوى أسعار التجزئة، قد تقدم فجأة، وفي مواجهة انزعاج بالغ من جانب زوجته، بطلب لشغل منصب محاضر في القانون بجامعة الخرطوم. وكان قد أمضى سنوات سعيدة في السودان في العشرينيات، وقد أصبح الآن يعاني من الخوف من التقاعد. ومن ناحية أخرى، فإن زوجته التي تصغره كثيراً لم يكن بوسعها التفكير في شيء أكثر فظاعة من مغادرة دارها وحديقتها في ريكما نزورث للمضي إلى صحاري السودان، غير أنه لما كان أبي قد تجاوز الخامسة

والستين من العمر، فإن السلطات في جامعة الخرطوم ردت على طلبه بأنه على الرغم من كونه مؤهلاً على نحو جيد بما فيه الكفاية لشغل الوظيفة، إلا أنه أكثر تقدماً في العمر مما يسمح بإسنادها إليه. كان أبي يمر بحالة من اليأس، وطلب مني أن أتبين ما إذا لم يكن بمقدور صديقي السفير أن «يلجأ إلى واسطة في هذا الصدد». وكنت أعرف أنني أطلب المستحيل من جمال، لكنني على الرغم من ذلك سعيت إلى الحصول على مساعدته، وقد بذل قصارى جهده من أجل «السوداني الوحيد الأبيض» كما قال ذات مرة عني، لكنه لم يكلل بالتوفيق. ومضى أبي للإقامة في جزر الكناري، ومات هناك بفعل الضجر الخالص إلى حد كبير، فيما أعتقد.

بعد ذلك بسنوات عدة، وعندما كنت قد بدأت في كتابة قصص للأطفال، أقنعت الناشر أندي سمارت Andy Smart الذي كان قد أمضى وقتاً في العمل مدرساً في منطقة نائية بالسودان، بإصدار كتاب «حكايات من السودان». واستقيت القصة الرئيسية في هذا الكتاب من كتاب جمال محمد أحمد بعنوان «سالي فو حمر» وهو مجلد من الحكايات التقليدية المأخوذة من بلاد أفريقية عدة. وقد اقتبست القصة التي منحت الكتاب عنوانه، وجعلتها واسطة العقد في كتابي الذي يتضمن حكايات سودانية للأطفال، وقد كانت قصة تقليدية مستمدة من تاريخ السودان الذي بعد به العهد. وتظهر عمليات البحث والتنقيب في المنطقة الشمالية الآن فحسب كم كانت الحضارة المتقدمة مزدهرة في هذا الركن القصي من أركان العالم. وقد وجدت بالمصادفة القصة نفسها – وهي قصة فاتنة تماماً كقصة شهرزاد في «ألف ليلة وليلة» - مروية مجدداً من قبل المؤلف الايطالي روبرتو كالاسو Roberto Calasso في كتابه «أطلال كاش».

١٣

كان يوسف إدريس شخصية كارزمية وكاتباً يتمتع بموهبة كبيرة، وكنت قد اخترت في كتاب «قصص قصيرة عربية حديثة» الصادر عن دار نشر جامعة أكسفورد قصة له، قام فيما بعد بتحويلها إلى مسرحية، لكنها - عندما يعود المرء بناظريه إلى الماضي - لم تكشف عن عبقريته الحقيقية باعتباره عملاق القصة القصيرة في مصر. ولم يكن في ذلك الوقت قد كتب أفضل أعماله. وعلى الرغم من كل ظرفه وجاذبيته، فإنه كانت له في بعض الأوقات رؤية مبالغ فيها علي نحو مثير للحرج لوضعه ككاتب. وقد أبلغني ذات مرة، بكل جدية، بأنني قد ارتكبت غلطة كبيرة بعدم تكريسي كل وقتي ومواهبي لترجمة أعماله. وفي مواجهة هذا الطرح رددت رداً ضاحكاً، ومما يبعث على السعادة أن يوسف كان إنساناً مرحاً، وكان بمقدوره أن يسخر من نفسه. وعلى الرغم من ذلك، فإنه كان على صواب بشكل من الأشكال، وهو لم يكن بالضرورة بحاجة إليّ، وإنما كان بحاجة إلى من يحرص على تقديم ترجمة قياسية لأعماله. وما حدث هو أن قصصه قد صدرت مترجمة بأقلام مترجمين مختلفين، في مجموعات عدة، كما صدرت مجلدات من قصصه في ترجمة انجليزية في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا، ولكن لم تصدر طبعة منقحة من أعماله.

لم تجتذب رواياته القليلة الكثير من الانتباه. ومؤخراً فحسب قام نيل هيوسون Neil Hewison بترجمة رواية من رواياته الأولى إلى الانجليزية تحت عنوان «مدينة الحب والرماد». وعندما جرت استشارتي بشأن كاتب عربي يمكن ترشيحه للفوز بجائزة نوبل، كان يوسف مدرجاً في قائمة المرشحين. فليقال إنه في عيون الكثير من الكتاب العرب الشبان كان يوسف إدريس، في وقت من الأوقات، يحظى بتقدير أكثر مما يحظى به نجيب محفوظ. ومن هنا فإنه لم يكن من غير الطبيعي أن يعلّق الآمال على أنه، في نهاية المطاف، سيكون هو المرشح العربي للفوز بجائزة نوبل. ولكن عوامل عدة عملت لما فيه صالح محفوظ، وليس أقلها شأناً انتاجه الكبير بشكل فذ، والحقيقة القائلة إن أعماله، بحسبانه روائياً بصورة أساسية، كانت متوافرة عن طواعية أكبر في ترجمات انجليزية وفرنسية.

كان يوسف إدريس، شأن توفيق الحكيم، نجيب محفوظ ولويس عوض، يعمل في «الأهرام»، كبرى الصحف المصرية. وشملت رحلاته إلى الخارج العديد من السفرات التي قام بها إلى روسيا. وقد أبلغني بأن روايته «الحرام» قد ترجمت إلى الروسية، وصدرت في طبعة تضم أكثر من مليون نسخة. وكان يسأل بصورة مستمرة: لماذا لا تباع نسخ أكثر من كتاباته في الترجمة الانجليزية؟ وكان يحس بخيبة الأمل لأن كتاباته الصادرة باللغة العربية أيضاً لم تكن تحقق نوعية المبيعات التي كان يريدها. ولكن كتابات من كانت تحقق ذلك آنذاك؟ وذات مرة أشار في حديثه معي إلى أنه ينبغي أن يشرع في الكتابة بالانجليزية، لكي تتاح له نوعية جمهور القراء التي يستحقها. ورداً على هذا حاولت، بأقصى قدر أستطيعه من اللطف، أن أشير إلى أن لغته الانجليزية، التي تعلمها في المدرسة وخلال دراسته للطب، أمامها مشوار طويل يتعين أن تقطعه قبل أن يستطيع أن يكتب بها بصورة إبداعية.

خلال زيارات دورية إلى لندن غالباً ما كان يجيء إلى مكتبي، ومن ثم نخرج لتناول طعام الغداء. وكان غيوراً على نحو غريب من أي شخص قد ينظر إليه على أنه ينافسه. وكان موجوداً في لندن، عندما صدر عدد مجلة «أصوات» الذي يتضمن قصة «دومة ود حامد» للطيب صالح، فانتقدني صراحة لقبولي «مثل هذه القصة البائسة». وقلت، في معرض الرد على هذا، بأنه من بين الناس جميعاً ينبغي أن يكون قادراً على تعرف

قصة قصيرة جيدة عندما يراها. ولكنه لم يكن بالشخص الذي يحتمل الاستياء أو الامتعاض، فنحينا الأمر برمته جانباً ضاحكين. وكان قد أصبح صديقاً شخصياً لي، ودرج على زيارتي في شقتي بلندن. وذات مرة، ولما كنت أعرف أن هناك مسرحية تنتمي إلى المسرح الطليعي تُعرض على خشبة مسرح الرويال كورت، فقد قمت بحجز مقاعد لنا. وكانت المسرحية، حسبما اتضح، حافلة بالكلمات البذيئة أكثر من أي مسرحية سبق لي أن شاهدتها، وانتهت بمشهد جنسي صريح. وداهمني الشعور بالحرج نيابة عن زوجتي، التي كانت قد صاحبتنا لمشاهدة المسرحية. وبدا يوسف بعيداً عن التأثر بالأداء بكامله، واكتفى فيما بعد بأن قال لي إن هناك شيئاً لم يفهمه: ماذا كانت كلمة Sheet هذه التي واصل الممثلون ترديدها؟ فأوضحت له ما تعنيه كلمة Shit وأحسست بالامتنان لأن استفساره لم يمض إلى ما يتجاوز هذا.

جعلت الزيارات العديدة للخارج التي تصادف قيامي بها سنواتي في لندن مما يمكن احتماله، وغالباً ما كنت أعمل مترجماً لرجال أعمال يمضون إلى السعودية أو إلى الخليج، أو عبر العطلات التي كنت أقضيها في المغرب بصفة أساسية. وفي إحدى المناسبات تقرر أن أعمل مترجماً في رحلة إلى قطر، وهو مكان أمضيت فيه عاماً من عمري، عندما كان لايزال واحداً من أقل الأماكن على وجه الأرض من حيث زيارة الناس له. وكانت المهمة المطروحة هي المساعدة في التفاوض بشأن اتصال مع الحاكم لإعداد فيلم وثائقي عن هذه المشيخة، التي كانت تنهض لتوها من رحاب الغموض. وكان الشخص الذي تقرر أن أرافقه في هذه الزيارة رئيساً لإحدى شركات الأفلام الوثائقية البارزة في لندن. وكنت أدرك بالفعل أن عملي في قطر سيغدو في الغالب أكثر صعوبة بحكم أن هذا الرجل كان معروفاً بأنه مدمن على الشراب، وأننا كنا بسبيلنا إلى الذهاب إلى هذا المكان المحافظ للغاية في شهر رمضان. وأُعطى مؤشر على مدى المتاعب المقترنة بالمهمة الملقاة على كاهلي عندما طلب في التو، بعد توصيلنا إلى مقاعدنا في الدرجة الأولى، كأساً مزدوجة من الويسكي لنفسه، وسألني عما

سأشربه، فقلت إنني أود بداية تناول طعام الافطار. وأبلغني خلال الرحلة بأنه يحمل زجاجتي ويسكي. وهل ستكون هناك أي متاعب في الدخول بهما للبلاد؟ قلت له إنه ليس هناك بلد أكثر صرامة في حظر هذا النوع من المشروبات من قطر، وذكّرته كذلك بأننا في شهر رمضان ذي القدسية، الذي ينظر فيه بمزيد من الصرامة إلى مثل هذه الأمور.

أظهرت على نحو جلي تمكني من اللغة العربية، في مطار الدوحة، وأشرت إلى أنني في وقت من الأوقات، منذ زمن بعيد يعود إلى ١٩٥٠، كنت قد أمضيت عاماً في قطر، وأعربت عن مدى سعادتي بالعودة إلى هناك، وبالغت في إضفاء الأهمية على الشخص الذي قدمت بصحبته، وأننا في صباح اليوم التالي سنحظى بشرف لقاء الحاكم، وتنفست الصعداء عندما رأيت حقائبنا يُكتب عليها سريعاً بالطباشير الأبيض ما يفيد المضي بها من دون تفتيش. ولم يبق لي ما أقوم به إلا التأكد من أن رفيق رحلتي سيكون، بشكل أو بآخر، في حالة ملائمة لدى لقاء الحاكم. وقد غادر قطر إلى لندن، مصطحباً معه اتفاقاً فيما يتعلق بالفيلم، وإن كان قد مضى يتساءل عن الجوانب المحتملة في هذا المجتمع الذي لم يخض بعد غمار التنمية التي يمكن إدراجها في فيلم وثائقي، بينما واصلت البقاء ليلتين اثنتين. في طريق عودتي على متن الطائرة، وبينما كنت جالساً على مقعد ملاصق للممر، محاولاً الانتهاء من مهمة ترجمة تجارية كنت قد جلبتها معي، وجدت رجلاً واقفاً إلى جانبي يحييني. ولم يكن هذا الرجل إلا عز الدين إبراهيم، المصري الأصل الذي كنت التقيته في الدوحة، والذي كان يعمل بوزارة التربية والتعليم القطرية. وذكر لي أنه كان قرأ، مؤخراً، ترجمتي لمسرحية «يا طالع الشجرة» لتوفيق الحكيم، وأعجب بها. وأعربنا كلانا عن الأمل في أننا يمكن أن نلتقي ذات يوم في مكان ما.

بعد سنوات عدة، وخلال الفترة التي كنت فيها أجوب أرجاء دول الخليج، باعتباري مندوباً لشركات المعماريين والمهندسين الاستشاريين، وجدت أن عز الدين كان، في السنوات التي انقضت منذ ذلك الحين، قد ترك وظيفته في قطر، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن (تحت اشراف بوب سرجنت)، وعمل بعض الوقت استاذا للأدب العربي بجامعة الرياض، وهو آنذاك المستشار الثقافي في أبوظبي للمغفور له

بإذن الله تعالى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان. وبينما كنت في رحلة عمل في أبوظبي، مضيت للقائه في مكتبه في الحصن القديم الرائع، وهو واحد من المباني القليلة التي سُمح ببقائها من ماضي أبوظبي، وهناك وجدت أن مساعد عز الدين هو علي رياض الذي كان أحد طلابي في جامعة القاهرة. وخلال إقامتي التي استمرت أياماً قليلة في أبوظبي أعارني عز الدين نسخة من «رياض الصالحين» وهي مجموعة شهيرة من الأحاديث النبوية الشريفة من تصنيف الامام يحيى بن شرف الدين النووي. وعندما أعدت إليه الكتاب، وقلت إنني وجدت الكثير من مادته آسراً، يخلب اللب - كان القرآن الكريم وحده هو مادة القراءة المقررة في الجامعة - عندئذ اقترح عز الدين عليَّ أن نعمل سوياً في تقديم ترجمة انجليزية لمجموعة أصغر من الحديث الشريف للمصنِّف نفسه تعرف باسم «الأربعون النووية»، وأعرب عن وجهة نظر قوامها أن الطريقة المثلى لترجمة النصوص الدينية - وهي نصوص تقتضي الدقة التامة قبل أي شيء آخر - هي قيام شخصين بالتعاون فيما بينهما، مترجم الانجليزية لغته الأم وله في الوقت نفسه معرفة جيدة بالعربية جنباً إلى جنب مع باحث آخر العربية لغته الأم ولكنه يعرف الانجليزية معرفة جيدة كذلك، وتقرر أن أقوم بالتعامل مع مسودة الترجمة الأولية، التي نقوم بعدئذ بتمحيصها والتدقيق فيها. ونظراً لأننا كلينا كنا نعيش حياة حافلة بالمشاغل، ونادراً ما كان يجمعنا مكان واحد، فإننا كنا نختلس اللقاءات اختلاساً في المكان وفي الظروف التي يمكننا اعتمادها.

تم انجاز الكتاب بالفعل، وكان عز الدين يزور بيروت في ذلك الوقت ، وكان ذلك في أوائل السبعينيات، عندما كنت أقيم في العاصمة اللبنانية وقررنا اصدار الكتاب بالاشتراك مع صديق له، هو بسام أسطواني، صاحب دار القرآن الكريم للنشر. وساهمنا ثلاثتنا في المشروع بألف وخمسمئة جنيه استرليني، وأتذكر أنني مضيت أحدّث نفسي بأنني قد لا استرد المبلغ الذي دفعته أبداً! غير أن الكتاب حظي بنجاح كبير، وصدرت منه عشرون طبعة، وأصدرته في وقت لاحق جمعية النصوص الإسلامية التي تتخذ من جامعة كامبردج مقراً لها، وأصدرته مجدداً دار الشروق، كبرى دور النشر المصرية. وقد حقق هذا النجاح بصفة أساسية من خلال جهود عز

الدين، ودعم المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الذي صدرت طبعات عدة تحت رعايته الكريمة، وبالإضافة إلى ذلك فقد اجتذب الكتاب اهتمام عدد من الناشرين الآخرين، الذين أصدروا طبعات مقرصنة منه.

كنا، أنا وعز الدين، نمعن التفكير في كتاب آخر من كتب الحديث الشريف لترجمته، عندما أتاحت لنا الصدفة فرصة اللقاء في مكان محدد لفترة من الزمن كل عام. وقد حدث هذا في إحدى رحلاتي إلى أبوظبي، حيث كنا جالسين في مقهى على شاطئ أبوظبي، عندما أمسك عز الدين بذراعي، ومضى إلى حيث كان المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ زايد قد دخل المكان مع عدد من مرافقيه، وقدمني عز الدين له باعتباري الشخص الذي كان يعكف معه على ترجمة الحديث الشريف، وفي التو أمر الحاكم بتوفير الإقامة لي في أبوظبي لمدة أسبوعين كل عام وبإعطائي بطاقة سفر سنوية ذهاباً وإياباً. وقد استمر هذا الترتيب سنوات عدة، وجعل من الممكن بالنسبة لنا أن نقدم كتابنا التالي، وهو مجموعة قصيرة من اختيارنا من الأحاديث الشريفة المعروفة بالأحاديث القدسية، وهي ضرب من الأحاديث النبوية، التي ينقل النبي فيها ما قاله الله عز وجل، ثم انتقلنا باهتمامنا إلى كتاب أكبر من كتب الأحاديث من تصنيف ابن تيمية يحمل عنوان «الكلم الطيب».

قررت أن أجرب القيام بمفردي بترجمة أحد الكتب التي تشكّل عمل الامام الغزالي الكلاسيكي الذي يحمل عنوان «إحياء علوم الدين». واخترت كتاباً موجزاً، يدور حول موضوع الطعام وتعاليم الإسلام بشأن التزامات المرء كمضيف وآداب المائدة وما إلى ذلك. وبالنسبة لي كان ذلك مغامرة في عالم الترجمة البحثية، وليس في عالم الأدب. وقد خضت تجربة مواجهة صعوبة في التعامل مع النص، ولكن الأمر الأكثر تعذراً كان التعامل مع أمور مثل الهوامش، الملاحق، ثبت المراجع، وهي الأمور التي طُلبت مني، والتي ليس أقلها شأناً تتبع الأحاديث النبوية الشريفة العديدة المتضمنة في هذا العمل. وقد ساعدني بالفعل صديقي عبدالرحمن فتزجيرالد Abdurrahman Fitzgerald الذي تعرفت عليه في مراكش، ونشرت جمعية النصوص الإسلامية هذا الكتاب عام ٢٠٠٠.

قررت أنا وعز الدين أن يكون مشروعنا التالي القيام بترجمة جديدة لمقاطع من

معاني القرآن الكريم، تدرج معاً تحت عناوين منفصلة، بحسب الموضوع الذي تتناوله، فالقرآن الكريم يتألف من ١١٤ سورة ما بين طويلة وقصيرة تتناول مجموعة منوعة من الموضوعات. ونحن نعتزم أن نطلق على ترجمتنا «قراءات في القرآن الكريم». وفي غمار اضطلاعنا بهذه الترجمة، فمن الجلي أننا حريصان على أن نرى، عندما يلتبس الأمر علينا بشأن مقطع ما، ما الذي فعله المترجمون الآخرون لدى ترجمتهم لمعاني هذا المقطع، وقد أذهلنا الاختلاف غير العادي في الترجمات. وفي كتاب حديث يضم مجموعة مقالات، يضرب المستشرق الأميركي برنارد لويس أمثلة عدة لترجمات لآية واحدة من القرآن تختلف بشدة، بحيث أن كل مترجم يبدو كما لو كان يتعامل مع آية مختلفة تمام الاختلاف. ألم يئن الأوان بالنسبة لجامعة الأزهر، بعد أن تقبلت أن القرآن تُترجم معانيه ترجمات جديدة بصورة مستمرة، لكي تشكل، على سبيل المثال، هيئة من العلماء، تتولى - مرة وللأبد - تقديم ترجمة قياسية «رسمية» لمعاني القرآن الكريم؟ وعلى الرغم من ذلك، فإن الأزهر رفض - عن حق - الخوض في غمار مثل هذه المغامرة الحافلة بالمخاطر، حيث لا يمكن إلا أن يحصد النقد المناوئ أياً كانت النتائج.

قبل سنوات عدة، قرَّر صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة إنتاج تسجيل للقرآن الكريم على شرائط الكاسيت، يتألف من تلاوة بالعربية تتبعها قراءة في ترجمة انجليزية لمعاني الآيات التي تُليت قبل ذلك مباشرة. وقد سألني صاحب السمو عن الترجمة التي ينبغي استخدامها، فأجبت قائلاً إنه من بين كل الترجمات المتاحة لمعاني القرآن الكريم فإن ترجمة مرمدوك بيكثال Marmaduke Pickthal التي صدرت للمرة الأولى في ١٩٣٠ ربما تظل الترجمة الأكثر ملاءمة. ومن المزايا الإضافية التي تتمتع بها ترجمة بيكثال أنها قد أنجزها انجليزي اعتنق الإسلام. غير أنه قبل المضي قدماً في التسجيل تم إدخال مئات عدة من التغييرات إلى الترجمة، حيثما ساد الشعور بأنها ليست دقيقة بما فيه الكفاية.

قام فريق منا - مقرئ مصري، الشيخ حبه (وهو خبير أزهري في القواعد المعقدة المتعلقة بتلاوة القرآن الكريم) شاب انجليزي اعتنق الإسلام، دنكان كارس Duncan Carse (وهو قارئ معروف ومحترف للتعليقات)، دكتور عز الدين وأنا - بشق طريقه

إلى أثينا، حيث ستقوم ستوديوهات إي. إم.آي بعملية التسجيل. وكنت قد اخترت دنكان كارس لقراءة ترجمة معاني القرآن الكريم، لكن شخصاً ما قال لصاحب السمو الحاكم إن قارئ الترجمة ينبغي أن يكون مسلماً. وكان عز الدين قد أشار محقاً إلى أن ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الانجليزية ليست، خلافاً للأصل العربي، وحياً منزلاً من قبل الحق سبحانه وتعالى، وأن المعيار الذي ينبغي اعتماده في اختيار القارئ هو الكفاءة المهنية. غير أن صاحب السمو الحاكم لم يرغب في أن يكون هناك انتقاد يوجه فيما يتعلق بديانة قارئ معاني القرآن الكريم بالانجليزية، وهكذا تم العثور على انجليزي شاب معتنق للاسلام، لتسند إليه مهمة قراءة معاني القرآن الكريم إلى الانجليزية، تحت إشراف دنكان كارس.

نزلنا جميعاً في فندق بوسط أثينا، وكنا ننطلق يومياً إلى استوديوهات إي.إم.آي، حيث يقوم عز الدين والشيخ حبه بالإشراف على التسجيل بالعربية، بينما أتولى أنا ودنكان كارس المسؤولية عن التسجيل بالانجليزية. وبعد أن أمضينا أسبوعاً عاكفين على العمل، كانت التلاوة بالعربية قد وصلت إلى منتصف القرآن الكريم، بينما في القراءة بالانجليزية كنا لانزال نكدح في التعامل مع الصفحات القليلة الأولى. وسرعان ما بدا جلياً لي ولدنكان أنه ما من قدر من التدريب يمكن أن يكون كفيلاً بأن يستخرج من القارئ الشاب نوعية النتيجة المطلوبة. ولهذا سألني عز الدين عما إذا لم أكن أعرف مسلماً انجليزياً له خبرة في التسجيل. وفي التو قفز إلى ذهني اسم جاي إيتون Gai Eaton ولكن أين هو الآن وكيف يمكن الاتصال به؟ بينما كنت قد عرفت جاي لفترة قصيرة في كامبردج، فإني لم أكن على اتصال منتظم به. وشاء حسن الحظ أن تكون زوجتي على معرفة بابنه، حيث كان قد أنجز عملاً لمكتب الاستعلامات المركزي، الذي يعد المعادل البريطاني لوزارة الإعلام، حيث كانت زوجتي تعمل رئيسة لقسم الأفلام. وأفلحت عدة اتصالات هاتفية في وضع أيدينا على معلومات تفيد أن ابن جاي وزوجته يستأجران دارة في مكان ما بجزيرة كريت، فتوجهت أنا وزوجتي بالطائرة إلى هيراكليون، التي استأجرنا منها عربة، وانطلقنا بها نجوب القرى، إلى أن وصلنا إلى مقر ابن جاي، وعن طريقه تمكنا من الاتصال بجاي نفسه، الذي أنجز التسجيل في وقت لاحق في لندن.

١٤

حوالي نهاية الوقت الذي أمضيته في لندن، قرَّر مكتب الاستعلامات المركزي البدء في انتاج برنامج في صورة مجلة تلفزيونية أسبوعية، مدة عرضها ربع الساعة، لكي يتم ارسالها إلى مختلف محطات التلفزيون في العالم العربي، وطُلب مني تولي المسؤولية عنها، وقد أسميتها «أضواء وأصوات». وتألف هذا البرنامج من أربع فقرات قصيرة أو خمس، مما قد تكون له أهمية بالنسبة للمشاهد العربي. وفي بعض الأحيان كان زوار لندن ممن يثيرون الاهتمام يظهرون في البرنامج، وهكذا كُرِّست حلقة بكاملها لعمر الشريف، وخصصت حلقة أخرى للمطرب عبدالحليم حافظ. وأتذكر بوضوح الحلقة الأخيرة من البرنامج، حيث بدا كل شيء وقد سار في الطريق الخطأ، ولم يكن النص المكتوب جاهزاً ليتاح لي تدقيقه في الوقت المناسب. وقيل لي: «لا تقلق، لسوف ندققه في الاستوديو قبل أن نبدأ في البروفات». ولكن لدى الوصول إلى الاستديو، وجدت أن الحلقة بأسرها تم ترتيبها بحيث تُكرَّس لمقابلة معي!.

خلال العامين اللذين استمر فيهما الإنتاج، قمنا برحلتين إلى الشرق الأوسط بصحبة طاقم من المصورين والفنيين، كانت الرحلة الأولى إلى شمالي المغرب. وقد فتنني دوماً الرحالة الكبير المنتمي إلى الشرق الأوسط ابن بطوطة، وكان من المعروف

أنه ولد في طنجة ومات بها أيضاً (في وقت لاحق، في القاهرة، أنجزت كتابا للأطفال عن هذه الشخصية الملغزة على نحو جذاب. وقد ولد ابن بطوطة في بداية القرن الرابع عشر، وإن كان أقل شهرة من منافسه الأوروبي ماركو بولو، وفاقه في المسافات المترامية التي قطعها). غير أنه لدى الوصول إلي طنجة والاستفسار في مكتب الاستعلامات السياحي عن مكان قبر ابن بطوطة، قوبلت بنظرات جوفاء. وربما تغير الوضع الآن، ولكن في أواخر الستينيات لم يكن قبر ابن بطوطة بالموقع السياحي. وبالفعل تم المضي بنا إلى مقبرة لا تترك في النفس تأثيراً قوياً، وصورنا تقريرنا عنها. وكان أحد مقدمي البرنامج لبنانياً يدعى عمر يمق، وتصادف أنه يشبه مارلون براندو شبها مذهلاً. وكنا نصور فقرة في مكان ما قرب تطوان، عندما اقترب مني شخص ما كان يراقبنا وسألني، على نحو بدا طريفاً لفريق العاملين، عما إذا كان بمقدوري أن أحصل له في الأوتوجراف الذي يحمله على توقيع النجم السينمائي الأميركي الشهير.

في عام ١٩٦٩ وجدت أنه لم يعد بمقدوري مواصلة الإقامة في انجلترا. وكانت المشكلة هي كيف أهرب منها وإلى أين. وقد تم حلها، بمحض الصدفة، من خلال إحدى زيارات جبرا الدورية إلى لندن، فقد ألقى محاضرة في جامعة لندن عن الأدب العربي الحديث، ودُعيت إلى حضورها. وأشار إليَّ في غضونها، وبعد ذلك، وهو ما أثار انزعاجي، طُلب مني أن ألقى كلمة قصيرة. بينما واجهت الجمهور رأيت أنه يضم في صفوفه جاك بريجز، الذي أصبح صديقاً لي خلال العام الذي كنت قد أمضيته في قطر في أوائل الخمسينيات. وكنتيجة للقائنا بعد كل تلك السنين، سمعت بأمر وظيفة تقتضي الذهاب للعمل مديراً لإذاعة تبث باللغة العربية في عُمان المتهادنة - دولة الإمارات العربية المتحدة الآن - وكانت الحكومة البريطانية تمتلك هذه المحطة، وأُسند إليَّ العمل مسؤولا عنها، في ضوء فهم أن واجباتي الوحيدة ستكون بوصفي مديراً لمحطة الإذاعة، وبعدئذ قررت الحكومة البريطانية الجلاء عن عُمان المتهادنة، وأشرت بتسليم المحطة إلى المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم، حاكم

دبي آنذاك، وكانت دبي هي المشيخة التي يستمد منها معظم عائد الإعلانات، ثم سألني الشيخ راشد عما اتقاضاه، وعرض عليَّ ضعف راتبي، إذا بقيت وواصلت إدارة محطة الإذاعة، وبعد أن سمع بأنني لديَّ أيضاً خبرة في العمل التلفزيوني، أبلغني بأنه يريدني كذلك أن أنشيء محطة تلفزيون وأديرها، وكتشجيع إضافي أبلغني بأنه سيُسمح لي بانشاء وكالة إعلان خاصة بي في الإمارات. وسألته عن السر في اختياره انجليزياً لإدارة محطة إذاعة مستقلة تبث باللغة العربية، فضحك بطريقته المعهودة، وقال إنه لا يكترث إن كنت صينياً، فقد رأى أن بمقدوري إدارة محطة إذاعة وتحويلها إلى نشاط أعمال ناجح، وذلك أمر كاف بالنسبة له. وربما كان ينبغي أن أقبل عرضه، وأن أصبح رجلاً ثرياً، ولكني شعرت بأن الأوان قد آن للانتقال، وهكذا اتصلت هاتفياً بيوسف الخال في بيروت وطلبت منه أن يعثر لي على شقة هناك.

كان يوسف الخال قد بدأ في اصدار مطبوعة ذات تأثير كبير، هي مجلة «شعر»، التي قامت بنشر أعمال شعراء محدثين من مختلف أرجاء العالم العربي. وكان يوسف نفسه، الذي أمضى سنوات عدة في الولايات المتحدة، وتملك ناصية انجليزية ممتازة، شاعراً قديراً بغض النظر عن إصداره للمجلة. وتصادف أن الشقة التي عثر لي عليها موجودة في البناية نفسها التي كان يقيم بها، وهكذا فقد التقينا كثيراً، وتعرفت عن طريقه على الكثير من الكتاب اللبنانيين والكتاب الآخرين، الذين كانوا أصدقاء له، ومن بين هؤلاء الكتاب كانت هناك ليلى بعلبكي، التي ترجمت قصة لها، ونشرتها في المجلد الذي أصدرته دار نشر جامعة أكسفورد. وفي وقت لاحق نُشرت هذه القصة، وهي بعنوان «سفينة حنان إلى القمر» ولا تعد مزعجة بالمعايير الغربية، في «كتاب بنجوين للقصص القصيرة الإيروتيكية النسائية». وقبل هذا كانت ليلى قد واجهت كل أنوع المتاعب في بيروت، بسبب ما نُظر إليها على أنها كتابة جريئة، بما في ذلك احالتها إلى القضاء لاستخدامها كلمة اعتبرت بذيئة، على الرغم من أنها من أكثر الكلمات تداولاً على ألسنة سكان لبنان.

استبدَّ عشق الحياة ومباهجها بيوسف الخال، وكانت شقته التي تمتد أمامها حديقة صغيرة مليئة على الدوام بالأصدقاء اللبنانيين وأي شخص من الخارج يكون في زيارة إلى بيروت، طالما أنه معنى بالكتابة العربية. وقد التقيت الكاتب المغربي محمد زفزاف للمرة الأولى هناك، على حين أن زكريا تامر الذي قدم من دمشق، والذي تبين أنه واحد من أفضل كتاب القصة القصيرة باللغة العربية أطلقه يوسف في مسار حياته باعتباره كاتباً، وأصدر له مجموعته الأولى بعنوان «صهيل الجواد الأبيض»، والتي أخذت منها قصة للمجلد الذي أصدرته أكسفورد. وقد انتقل زكريا تامر في وقت لاحق للإقامة في لندن، وقدمت مجلداً يمثل أعماله تحت عنوان «النمور في اليوم العاشر» من اصدار دار كوارتيت. ويتضمن أحدث مجلد لي يضم قصصاً قصيرة عربية، والذي أصدرته دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة تحت عنوان «تحت سماء عارية» قصة قصيرة له كذلك.

أحس يوسف الخال بأن الأوان قد آن لقيام شخص ما بإنجاز ترجمة انجليزية لمجموعة مختارة من الشعر العربي الحديث، واقترح أن أقوم أنا وهو بهذه المهمة معاً. غير أن الشعر لم يكن في صدارة اهتماماتي، وبالإضافة إلى ذلك فإن يوسف كان يعتقد أن معظم الشعر العربي يحتاج إلى تحرير مكثف لدى ترجمته، وأن قصائد عديدة ستتحسن من خلال التشذيب الجذري. وبالمقابل فقد كنت أومن بأنه ليس من شأن المترجم أن «يحسِّن» أي مقطوعة كتابية، سواء بالإضافة إليها أو بالحذف منها، وذلك على الرغم من أنه – الله وحده يعلم جلية الأمر – غالباً ما يتعرض المرء لغواية القيام بذلك. وبينما كنت أعد ترجمة لمجلد من قصص نجيب محفوظ القصيرة لدار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة ودار دوبلداي، أحسست بأن القصة القصيرة للغاية والبديعة التي تحمل عنوان «نصف يوم» يمكن أن تستفيد من كلمتين يضافان إلى نهايتها. واتصلت هاتفياً بنجيب لأبلغه بهذا الاقتراح، ولم أندهش عندما وافق بصدق وإخلاص على هذه الإضافة إلى ترجمتي الانجليزية. وعلى الرغم من فوز نجيب محفوظ بأرفع جائزة أدبية في العالم، فإنه يظل أبعد الناس عن الخيلاء والغرور.

كان يوسف معسراً على الدوام، ومع ذلك فإنه كان يبدو أن لديه من المال ما يمكنه من الاستمتاع بما لذ وطاب من المأكل والمشرب. وقام كذلك خلال وجودي هناك،

بشراء مكان لقضاء عطلات نهاية الأسبوع في قرية غزير، ثم وجد مكاناً لي أشتريه بسعر رخيص في القرية نفسها، حيث كان مفتوناً بفكرة كون شخص يشتغل على ترجمة جديدة للأناجيل العديدة إلى اللغة العربية جاراً لإنجليزي يعكف على ترجمة جانب من الحديث النبوي الشريف إلى اللغة الانجليزية، وهو جهد كنت قد بدأته لتوي مع صديقي، من أبوظبي، عز الدين إبراهيم. وعلى الرغم من أن الدار والحديقة في غزير كانتا جذابتين وسعرهما معقول، إلا أنني ساورني الشعور بأن لبنان ليس مكاني، في المدى البعيد، وأنني سأعود بالفعل للإقامة في مصر.

بعد سنوات عدة سمعت، في لندن، أن يوسف أصابه مرض خطير، وكان قد سعى وراء العلاج، في باريس، من المرض المخيف الذي يطال الكثير من المدخنين. وكان ذلك بلا طائل، وعندما جاء يوسف في وقت لاحق إلى لندن، التقيت رجلاً كان شبحاً لصديقي وجاري في بيروت، ومات بعد وقت قصير.

عرفت حنان الشيخ عندما قامت بنشر روايتها «حكاية زهرة» من إصدار دار كوارتيت. وكان من الواضح أنه ها هنا كاتبة تقيم في لندن، وبمقدورها التراجع بعيداً عن المشهد العربي والكتابة عنه فيما هو يصطدم بالغرب. ربما كان ما ينقص الكتابة العربية، على الأقل لكي تُقرأ في الغرب على نطاق أوسع، هو الإحساس بالانتماء إلى كل أكبر، فمعظم العرب الذين يكتبون اليوم لم يقيموا في الخارج ولا يعرفون، بصفة عامة، لغة أجنبية، بحيث أن كتابتهم تميل إلى أن تكون مغلقة. وعلى سبيل المثال، فإن روايات عربية قليلة هي التي تضم شخصيات من أجزاء أخرى من العالم. وعلى الرغم من أن حنان الشيخ تكتب باللغة العربية – على العكس من أهداف سويف، على سبيل المثال – إلا أنها مع ذلك لديها نوافذ مشرعة على العوالم الأخرى، واجتذبت إلى نفسها جمهوراً حقيقياً من القراء في الغرب، في كل من الترجمة الانجليزية والترجمة إلى لغات أخرى. وكتبها تقوم بتسويقها بنجاح إحدى دور النشر البارزة في لندن، كما أنها حققت لنفسها شهرة في الولايات المتحدة. وهي لا تحظى بتقدير رفيع على هذا

القدر في العالم العربي، حيث يشعر الكثيرون بأنها لا تمثل وجهة النظر العربية حقاً. وأتذكر أنها في وقت من الأوقات انتقدت لتصويرها شخصيات من قبيل عاهرة مغربية وهي تمارس مهنتها في لندن، وشخصية عربية أخرى، هي شخصية رجل شاذ. واتهمت بلفت الانظار إلى جوانب سلبية لدى بعض العرب، كأنما ليس هناك من يدرك أن نسوة عربيات يصبحن في بعض الأحيان عاهرات، أو أن بعض الرجال العرب هم من الشواذ.

في مستهل ترسيخ مكانة حنان ككاتبة، سألتني عما إذا كنت أود أن أكون مترجماً لأعمالها، ولم أرغب في أن أقيد نفسي، ولذا اقترحت عليها أن تقوم كاثرين كوبهام Catherine Cobham بهذا، وقد أدت مهمة جيدة في هذا الشأن على مدى سنوات. غير أنني ترجمت قصصاً قصيرة عدة لها، وأتذكر الآن أنني ترجمت لها كذلك قصة فاتنة من قصص الأطفال، حول العادة السائدة بين بعض النساء العربيات، والمتمثلة في استخدام الحناء في خضاب أيديهن وأقدامهن. ولسبب ما فإن حنان قد انقطعت عن الكتابة للأطفال، على الرغم من أنه من الجلي أنها تتمتع بموهبة إبداع هذا النوع من الكتابة، وستجد في يسر ناشراً في لندن لمثل هذه القصص.

في لندن، تعرف حنان الكثير من كتاب انجلترا البارزين. وقد قامت ذات يوم بدعوتي لتناول طعام الغداء، لأن الناقدة والروائية جيل نيفل رغبت في لقائي. وقد أردت بدوري مقابلتها، لأنها هي التي قامت عندما كانت ناقدة الكتب في صحيفة «صنداي تايمز» باختيار «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح كتاب العام. لم نكد نجلس حتى التفتت إليَّ جيل نيفل وسألتني: «تبلغني حنان بأنك كنت تدرِّس في جامعة القاهرة في أواخر الأربعينيات. فهل تعرف شخصاً يدعى بيتر دوفال سميث Peter Duval Smith?» رددت في براءة: «نعم، بالطبع، كنت أنا وهو صديقين مقربين أحدنا من الآخر، وفي وقت من الأوقات تقاسمنا معاً دارة في ضاحية من ضواحي القاهرة تدعى بالمعادي». بهتّ إلى حد ما عندما ردت قائلة: «عليك أن ترتحل مسافة طويلة لكي تلتقي ابن حرام أكبر منه!». أبديت دهشتي حيال ذلك، وهو ما ردت عليه بقولها: «لقد عرفت بيتر معرفة وثيقة.. وفي الحقيقة كنا زوجين على امتداد شهور عدة». ثم انطلقت تحكي كيف أنها قد كتبت رواية بعنوان «كبش فداء»، كانت إلى حد كبير تدور حول

علاقتها ببيتر. وقبل نشرها أحست بأنها ينبغي عليها مراجعته، ولذا أعطته المخطوط ليقرأه. وأخذه منها، ثم أعاده إليها بالقائه في وجهها، وقد كتب عليه هذه الكلمات: «افعلي به ما تشائين، بما في ذلك نشر صورة لعضوي على الغلاف!».

١٥

غادرت بيروت، في عام ١٩٧٤، عائداً إلى القاهرة، فقد كان لبنان يزج بنفسه في أتون حرب أهلية، وكانت لديَّ بالفعل بعض الخبرة بمدى صعوبة ما ستصبح عليه الحياة هناك. واشتريت شقة في الدقي، وهي حي من أحياء وسط المدينة إلى حد كبير، وذلك وفقاً لنظام تحصل بمقتضاه، لقاء مبلغ إجمالي ليس بالجسيم على الأثاث الضروري والامتلاك المطلق للشقة لك ولعائلتك المباشرة، ولكنك تواصل دفع إيجار ضئيل.

في حوالي ذلك الوقت، تعرفت على يحيى الطاهر عبدالله، وهو من شخصيات العالم الأدبي الغريبة. وكان قد جاء من مسقط رأسه، بلدة الكرنك في صعيد مصر، ليشق طريقه في القاهرة. وأظن أنني قرأت لأول مرة قصة له في «جاليري ٦٧»، المجلة التي تولي رئاسة تحريرها إدوار الخراط، الذي كان من أوائل من رصدوا مواهب هذا الشاب، واستخدم صلته الوثيقة بالكاتب ووزير الثقافة المصري الأسبق يوسف السباعي ليحصل ليحيى على راتب شهري صغير. وعلى الرغم من ذلك فإن يحيى عاش عيشة كفاف. وعندما التقيته لأول مرة كان يتقاسم غرفة صغيرة مع فتى يكسب عيشه بالكاد من تلميع أحذية الناس. لدى قيامي بقراءة قصصه، رحت اتساءل عما سيكون رأي القارئ بالانجليزية فيها، وعلى الرغم من ذلك، فقد أحسست بأن بعضاً

من أعماله ينبغي أن يكون متاحاً للقراء في ترجمة بالانجليزية. وباعتباري مستشاراً لسلسلة «مؤلفون عرب» فقد كانت لي صلاحية مطلقة، فيما يتعلق بها، على وجه التقريب. وقد عرضت قصة أو قصتين على جيمس كاري، الذي كان، بالاشتراك مع كيث سامبروك، يعني بكل من سلسلتي «كتاب أفارقة» و«مؤلفون عرب»، فأدرك أنه هاهنا كاتب ينبغي تقديمه للقراء.

خلال الوقت الذي كنت عاكفاً فيه على هذا الكتاب، غالباً ما كان يحيى يزورني في شقتي بالدقي، وكان يصحب معه، في بعض الأحيان، ابنته الصغيرة. وكان أول ما يقوم به هو شن غارة على ثلاجتي، ثم بعد ذلك أجعله يجلس ليجيب على أي استفسارات أطرحها عليه. وقد أبلغني بقوله: «في إحدى القصص ستجد أن هناك تضارباً». أجبته: «أعرف. ما الذي يمكننا فعله حياله؟» رد قائلاً: «لا شيء على الإطلاق. فأنا أحبها كذلك». ومن حسن الحظ أن القراء بصفة عامة لا يلاحظون التضاربات، ثم سألني عن المبلغ الذي سيتم دفعه له، فقلت إنه يعتمد على مدى جودة مبيعات الكتاب، وإن عقد الناشر سينص على أن يتقاسم المؤلف والمترجم عوائد الملكية الفكرية مناصفة. ولم يكن يحيى بالرجل الذي يتلمس لكلماته مواضعها قبل نطقها قط، ولذا رد في التو: «ولكنك لست إلا المترجم فقط!». وفي معرض الرد ألقيت بقصصه في حجره مع هذه الكلمات: «إذن، فاعثر لنفسك على مترجم آخر». وأوضحت له أن هذا هو الترتيب المعتمد في الدفع. وفي التو توالت اعتذاراته، وقال لي: «يا عم دنيس، كل الحكاية إني مبسوط لأن قصصي ستقرأ بالانجليزية، وأنك من سيترجمها».

حرصت، في حالة كتاب يحيى، على أن يصدر في المقام الأول في طبعة ذات غلاف سميك، فقد كانت الكتب تصدر في سلسلة «مؤلفون عرب» في طبعات ذات أغلفة ورقية، ولم تكن تحظى إلا باهتمام نقدي محدود، ومن المحتمل أن ذلك كان راجعاً، في أحد جوانبه، إلى الحقيقة القائلة إن كونها تصدر في طبعة ذات أغلفة ورقية كان يعطي الانطباع بأنها سبق لها أن صدرت في طبعة ذات غلاف سميك بالفعل. ووعدني جيمس كاري بأن هذا الكتاب سيصدر في طبعة ذات غلاف سميك، إذا استطعت الحصول على طلبيات من هيئات في القاهرة، بحد أدنى يصل إلى ثلاثمئة نسخة. وكان من بين من وقعوا طلباً بالحصول على مئة نسخة الشاعر صلاح عبدالصبور، الذي تصادف

أنني أعرفه، والذي كان رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب. ولكن في الوقت الذي طالبت خلاله بأن يتم الوفاء بهذا التعهد كان صلاح عبدالصبور قد توفي، في سن مبكرة نسبياً. وهكذا فقد مضيت للقاء من حل مكانه في رئاسة الهيئة المصرية العامة للكتاب، والذي قال لي في التو: «لكن صلاح عبدالصبور مات»، وأعاد إليَّ الورقة التي تحمل توقيع الشاعر الراحل، فقلت له: «وأنا وأنت سنموت كلانا، إن شاء الله، بعد عمر طويل» ونهضت من جلستي تاركاً القهوة من دون أن أشربها. وقد علمت فيما بعد أن صلاح عبدالصبور لم يكن يقدِّر يحيى كثيرا، سواء كشخص أو ككاتب، ويفصح لنا بالكثير عنه قيامه، بصفته الرسمية، بتقديم الدعم له، على الرغم من ذلك.

بعد سنين عدة، ترجمت صياغة مبسطة كان صلاح قد أعدها للصغار من «حي بن يقظان» لابن طفيل، وهو نص شهير كان قد تُرجم في وقت جد مبكر إلى الانجليزية، وقيل إنه قد ألهم ديفو Defoe كتابة «روبنسون كروزو». وكانت صياغة صلاح عبدالصبور قد صدرت بالعربية، قبل سنوات طويلة، مصحوبة برسومات بديعة، أنجزها الفنان المصري المعروف مصطفى حسين، وأصدرتها دار الشروق، الناشر الحالي لكتبي الخاصة بالأطفال، وهكذا كان من الممكن بالنسبة لي أن أقوم بنقل النص العربي إلى الانجليزية ليصدر هذا الكتاب تحت عنوان «وحيد في جزيرة صحراوية».

في إطار جهودي لإصدار طبعة ذات غلاف سميك من قصص يحيى، مضيت أيضاً للقاء توفيق الحكيم في مكتبه بصحيفة «الأهرام». هل يعرف أحداً من ذوي النفوذ في الحكومة قد يكون بمقدوره التقدم بطلبية لنسخ من الكتاب؟ هز رأسه نافياً، غير أن صلاح طاهر، الفنان الذي كان قد صمم غلاف مجلد «مصير صرصار» من تأليف الحكيم وترجمتي، تصادف وجوده في الغرفة في ذلك الوقت، فوَّجه لوماً عنيفاً للحكيم: «لماذا لا يحادث عبر الهاتف فلاناً الفلاني نائب وزير الثقافة؟» قام توفيق الحكيم بذلك عن طواعية، وحصل لي على موعد مع نائب الوزير. ولكن المقابلة كانت كارثة، حيث بدأ نائب الوزير حديثه معي بسؤال: لماذا أهدر وقتي في ترجمة أعمال مثل هذا الصعلوك؟ فأجبت بأنني لا يعنيني ما إذا كان يحيى صعلوكا من عدمه، وإنما يعنيني أنه، في رأيي، كان كاتباً يتمتع بموهبة حقيقية. وبدا جلياً أن نائب الوزير لا يوافقني فيما ذهبت إليه. وهذه المرة شربت قهوتي، واستأذنت في الانصراف.

على الرغم من أنني لم أحصل على العدد المطلوب من الطلبيات، فإن دار هاينمان قامت بإصدار طبعة سميكة الغلاف من الكتاب تحت عنوان «جبل الشاي الأخضر وقصص أخرى». ومع ذلك، فإنني بينما كنت أصحح بروفات المقدمة التي كنت قد كتبتها تلقيت، حزيناً، برقية من صديقي الكاتب جميل إبراهيم عطية، يبلغني فيها بأن يحيى الطاهر عبدالله قد لقى حتفه في حادث سيارة، حيث كانت إحدى العجلات قد انفجرت، وألقى نفسه من مقعد الراكب، فسحقته السيارة تحت عجلاتها. ولم يلحق أذى بأي من ركاب السيارة الآخرين، بمن في ذلك ابنته الصغيرة. وبتشجيع من مجلد قصصه الصادر في ترجمة انجليزية، فإن كتابات يحيى كان يمكن أن تكتسب عمراً جديداً. لقد مات عن ٣٩ عاماً، وكان موهوباً حتى أطراف أصابعه. ولايزال مجلد «جبل الشاي الأخضر» ضمن إصدارات دار نشر الجامعة الأميركية.

تتسع مع مرور الأعوام الهوة الممتدة في مصر بين من يبدعون الأدب ومن يفترض أنهم يشجعونه. وقد بلغت الأمور ذروتها في عام ٢٠٠٣، عندما تقرر إعطاء جائزة الرواية التي تقدمها وزارة الثقافة المصرية للروائي صنع الله إبراهيم. وبعد أن بدا أنه يقبلها، رفضها في حفل تقديم الجائزة ذاته، قائلاً إنه لا يريد أن تكون له صلة بحكومة تفتقر إلى المصداقية. وبقدر ما كان جمهور الحاضرين متحمساً لدى إعلان أن الفائز بالجائزة هو صنع الله، فإن حماسه ازداد اشتعالاً عندما رفضها. وفي المرة التالية التي تُمنح فيها الجائزة، وحرصاً على تجنب حرج مماثل، طلب رجال السلطة من أولئك الذين يرشحون لنيل الجائزة توقيع إفادة، قوامها أنهم إذا مُنحوا الجائزة فسوف يقبلونها من دون التسبب في أي متاعب. فرفض العديد من الكتاب، وبينهم بصفة خاصة جمال الغيطاني، بهاء طاهر، والروائي اللبناني إلياس خوري توقيع مثل هذه الإفادة. وعلى أية حال، فإن الجائزة التالية مُنحت للطيب صالح.

قبل سنوات عدة، قرأت مجموعة من القصص المصرية من ابداع كاتبات. وبرزت من بينها قصة بعنوان «عالمي المجهول» من تأليف أليفة رفعت، التي لم أكن قد سمعت باسمها من قبل. وهذه القصة غير المألوفة ذات المسحات الباطنة الجنسية شقت طريقها في وقت لاحق إلى «كتاب بنجوين للقصص القصيرة الإيروتيكية النسائية». وأتذكر أنني قابلت أليفة في فندق شبرد، حيث شربنا القهوة، وحدّثتها بمدى تأثري بقصتها.

ولما كانت زوجة لضابط شرطة رفيع الرتبة وامرأة شديدة التدين، فلم يكن من المحتمل أن تُرشح للتشجيع من قبل من لديهم تأثير في العالم الأدبي، الذين كانت لهم في الغالب الأعم ميول يسارية. ويبدو أنها كانت واجهت بالفعل قدراً معيناً من العداء ممن حولها، بسبب طموحاتها المتعلقة بالكتابة. وقد أفضت إليَّ بأنها لا تود شيئاً قدر رغبتها في أن تُترجم كتاباتها إلى اللغة الانجليزية، فطلبت الاطلاع على نماذج أخرى من كتاباتها، وقمت بالفعل بنشر بعض قصصها في مجلة أدبية، الأمر الذي أسفر عن دعوتها لزيارة لندن (وكانت تلك أول رحلة تقوم بها إلى خارج مصر). وفي وقت لاحق، قمت بترجمة مجموعة من قصصها القصيرة نشرتها دار كوارتيت تحت عنوان «منظر بعيد لمنارة»، وحققت قدراً ما من النجاح في انجلترا وأميركا، على الرغم من أن هذا المجلد الصادر باللغة الانجليزية محظور الآن في مصر، بسبب الصراحة التي كُتبت بها بعض القصص. وقد توفيت أليفة رفعت في عام ١٩٩٥م.

لم أكترث قط بما إذا كان كاتب ما مشهوراً من عدمه، حيث كنت على الدوام في حالة بحث عن موهبة جديدة. وإني لأجد الترجمة عملاً مضنياً، ولا يحصل المرء على أجر جيد لقاءها، ومن هنا فإنه لا يبدو أن هناك معنى لترجمة كتب لا يقدرها المرء كثيراً. وهكذا فإن عدداً من الأصدقاء في العالم العربي غالباً ما يلفتون نظري إلى كتاب أصغر سناً وليسوا معروفين بعد. بهذه الطريقة اكتشفت قصص الكاتب العراقي محمد خضير، الذي تضم مجموعتاي الأخيرتان من القصص القصيرة من العالم العربي قصصاً له. وقد قُدمت لي قصة بقلم كاتب عراقي آخر من قبل عبده جبير، وهو صديق قديم لي، يعمل كاتباً وناقداً، تضم مجموعة «تحت سماء عارية» إحدى قصصه وهو اليوم جاري في القرية المطلة على بحيرة قارون، والتي لي فيها دار ريفية أثيرة ممتدة بلا انتظام وحوالي مئة شجرة زيتون. وأتذكر أنه كان واحداً ممن بذلوا قصارى جهدهم لتنبيه المؤسسة الأدبية إلى الأدب العربي الحديث، ولكنه في هذا المجال، كما في مجالات أخرى، لم يكلل جهده بالنجاح. كما أتذكر كذلك أنه بعد وقت قصير من مقابلتي له - عن طريق صديقنا المشترك ديزموند ستيورات Desmond Stewart وهو واحد من أوائل المؤيدين للنهضة في الأدب العربي - أبلغني صراحة بأنه بحاجة

للمال، فهل لي في إتاحة بعض الوقت لإجراء مقابلة معي يقوم هو بانجازها؟ كان هذا تغييراً منعشاً بالمقارنة بالأسلوب المعتاد الذي يتبعه الصحافيون، الذين يسعون إلى إقناعي بأنهم يقدمون لي جميلاً كبيراً. وفي وقت لاحق، وقبل أن يمضي للعمل في الكويت، كان يتولى مسؤولية تحريرية بارزة في مجلة «القاهرة» الأدبية، ولفت انتباهي إلى قصة كان قد نشرها حديثاً من تأليف إنعام كجاجي. ولم يكن يعرف عنها شيئاً باستثناء أنها صحافية عراقية مقيمة في باريس. بعد أن قرأت القصة وأحببتها، قمت بترجمتها لإدراجها في مجلد «تحت سماء عارية»، ثم تصادف أنها مرت بالقاهرة، وأتيحت لي فرصة لقائها. ما الذي كتبته غير هذه القصة؟ أدهشني أن أسمع أن تلك هي قصتها القصيرة الوحيدة، لكنها تعكف على كتابة رواية. وفي الصيف التالي أمضيت عدة أيام في باريس، وقابلت عن طريق أنعام الكاتب التونسي حبيب السلمي. وكنت قد ترجمت قصة له لإدراجها في مجلد عام يضم قصصاً قصيرة من العالم العربي، أنجزته في عام ١٩٨٣ . كما كنت قد ترجمت كذلك رواية قصيرة له بعنوان «جبل العنز»، لم أنشرها في ذلك الوقت. وأطلعت في وقت لاحق على ترجمة إلى الفرنسية لتلك الرواية، الأمر الذي شجعني على البحث في أوراقي عنها، لكنني عجزت عن العثور عليها. والمترجم يترجم أكثر بكثير مما ينشر، ففي بعض الأحيان يشتغل المرء على عمل ما، ثم في منتصفه تراوده الشكوك بشأنه، ويتخلى عنه، أو لسبب أو لآخر لا يستطيع المرء العثور على ناشر لعمل ما كان متحمساً له بما فيه الكفاية في وقت من الأوقات.

يُقام في القاهرة عدد من المؤتمرات، ويُدعى الداني والقاصي لحضورها. وقد بدا الاستماع إلى المحاضرات بالنسبة لي على الدوام شكلاً مراوغاً من أشكال التعذيب يمكنني الاستغناء عنه. وإني لأنكمش إزاء مشهد رجل أو امرأة يشقان طريقهما إلى

المنصة قابضين على رزمة سميكة من الأوراق، التي سيقرأن منها على نحو مضجر، حريصين على النطق الصحيح لنهايات الكلمات وعدم ارتكاب أي أخطاء نحوية مضحكة. وكما أنني أكره حضور محاضرات يلقيها آخرون، فبالقدر نفسه أعارض قيامي أنا نفسي بإلقائها، وبصفة خاصة باللغة العربية. وأتذكر بجلاء بالغ، عندما كنت في القاهرة في الأربعينيات، تجربة حضور محاضرة مضجرة على نحو محبط ألقاها مستشرق بارز، وملاحظة أن مصرياً كان يجلس إلى جواري قد بدا أنه يدون ملاحظات بشأن المحاضرة، ولكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق، وإنما كان عاكفاً على تسجيل عدد الأخطاء التي يرتكبها المستشرق الكبير في سياق المحاضرة!

في أمسية أقامتها ميسون القاسمي، وهي شاعرة شابة من الإمارات كنت قد قابلتها في مكتب حسني سليمان، مؤسس دار شرقيات للنشر في القاهرة. ألفيت نفسي جالساً إلى جوار شاعر وروائي من الأردن يدعى إبراهيم نصر الله، كان يعمل في مؤسسة مقرها عمّان، تسمى مؤسسة عبدالحميد شومان الثقافية. ودعاني للذهاب إلى عمّان، فأبلغته في التو أنني لن ألقى محاضرة، ولكني على تمام الاستعداد للرد على الأسئلة المرتجلة من جمهور الحاضرين.

وقد مضت جلسة السؤال والجواب هذه على ما يرام، ومما له أهميته بالنسبة لي أنها قد حضرها فلسطيني كان قد عمل معي، قبل ذلك بثلاثين عاماً مضت، عندما كنت مسؤولاً عن محطة إذاعة تبث بالعربية، فيما أصبح الآن دولة الإمارات العربية المتحدة.

في المساء الأول في عمّان، أُعد عشاء، دُعي إليه الناقد والباحث الفلسطيني البارز إحسان عباس، وقد سعدت كثيراً لرؤيته مجدداً، حيث كانت خمسون سنة قد انقضت منذ آخر لقاء لنا. وعلى الرغم من أننا من سن متماثلة، إلا أنني في حقيقة الأمر كنت مدرساً له في جامعة القاهرة. وكنت قد أُسندت إليَّ مهمة تدريس اللغة الانجليزية في قسم اللغة العربية، وذلك على أساس افتراض أن معرفتي باللغة العربية يمكن أن تكون عوناً للطلاب. وسرعان ما تبين لي أن معرفة احسان بالانجليزية معرفة ممتازة، وأنه لن يستفيد من قضائه عاماً كاملاً عاكفاً على قراءة كتاب واحد مقرر عليه، وهو «آمال كبار»، ولذا انتحيت به جانباً في نهاية الدرس، وأبلغته بأنه ليس عليه أن يتحمل عناء حضور المزيد من الدروس، وإنما يتعين عليه، إذا كان لديه الوقت، أن يقوم بقراءة

قائمة من الكتب من بينها، ضمن كتب أخرى، «أهالي دبلن» ورواية لفرجينيا وولف. وبعد سنوات طويلة لاحقة أطلعني أحدهم على سيرة حياة احسان الذاتية، حيث يأتي على ذكر قائمة رواياتي، وكيف أنها اجتذبته إلى قراءة المزيد في اطار الأدب الانجليزي. وفي عمّان استغرقنا في حديث الذكريات، عن الأيام الخوالي في القاهرة. وحدّثني بمغامرته الوحيدة في رحاب الترجمة، عندما أنجز المهمة التي لا يستهان بها المتمثلة في ترجمة «موبي ديك» إلى اللغة العربية، وكيف أنه منذ ذلك الحين التقى بأناس حدثوه بمدى روعة ترجمته، ولكن ألم يكن من الممكن أن تكون أفضل لو أنه قام في صفحة كذا وكيت بترجمة هذه الكلمة أو العبارة على وجه التحديد بكذا وكيت؟ وتلك هي إحدى الطرق، التي توجد طرق أخرى عديدة إلى جوارها، التي تتجلى بها الترجمة باعتبارها مهمة لا يلقى من يقوم بها جزاء ولاشكوراً. كم عدد المرات التي جاء أحدهم وقال: «لقد أحببت ترجمتك للكتاب الفلاني»؟ لقد حدث لي ذلك مرة واحدة، عندما هنأني جيمس كاري James Currey من دار هاينمان، الذي لا يعرف اللغة العربية على استخدامي تعبير hanky panky في ترجمة رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح. ومن ناحية أخرى فإنه ذات مرة في أثناء درس بالجامعة الأميركية في القاهرة أشارت شابة، بكثير من الاعتذارات وتضرج الوجه ارتباكاً، إلى أنه حتى أفضل مترجم يمكن أن يقع في «انزلاقات»، ثم أبلغتني بأنني في موضع أو آخر ارتكبت غلطة بالغة الغرابة في ترجمة «الجمعة الحزينة» (التي تعني حرفياً Sad Friday) إلى Good Friday فكيف وقعت في مثل هذا الخطأ الواضح؟ أشرت إلى أنني لم أقع في غلطة، ولكن هذا اليوم يعرف حقاً في اللغة الانجليزية باسم Good Friday غير أنها استمرت في هز رأسها غير مصدقة لدى جلوسها.

قام بيتر كلارك Peter Clark وهو مستعرب ومترجم مهتم بالأدب العربي الحديث، كان مديراً للمجلس البريطاني في دمشق، بترتيب زياراتي أنا وزوجتي إلى دمشق وحلب، مؤخراً. وفي كل مدينة من المدينتين طُلب مني لقاء الكتاب المحليين ومحادثتهم عن الجهود التي تبذل لتعريف العالم الناطق بالانجليزية بالكتابات العربية الحديثة. وهكذا أتيحت لي في حلب فرصة الالتقاء للمرة الأولى بكاتبين، كنت قد أدرجت قصصهما في المجلد الأول الذي يضم قصصاً قصيرة عربية، والذي أصدرته

دار نشر جامعة أكسفورد. كان عبدالسلام العجيلي كاتباً نشطاً وطبيباً متفرغاً لممارسة الطب، وتقلد في أوقات مختلفة منصب الوزارة. كانت القصة التي ترجمتها له بعنوان «الرؤيا» وتدور حول آية من آيات القرآن الكريم. ولدى قيامي بترجمتها، ساورني على الفور الشك في نسبته هذه الآية إلى سورة الفتح. وبالرجوع إلى المصحف، وجدت أنني كنت محقاً، وأن هذه الآية هي من سورة النصر، الأقصر في نصها من سورة الفتح. ولما لم أكن راغباً في القيام بالتصحيح في الترجمة من دون استشارته، فقد كتبت إليه، وأشرت إلى الخطأ بأقصى ما يمكنني من اللباقة، فقد كان في نهاية المطاف وزيراً للثقافة. ورد عليّ برسالة يعرب فيها عن شكره، وبعد ذلك بسنوات قرأت مقالاً له في مجلة «الدوحة» يشير إلى هذه الغلطة، وإلى أن الأمر تتطلب مستشرقاً (وهو ليس من أوصافي التي أحرص عليها) لاكتشافها. وأشار كذلك إلى أن القصة لم تنشر في مجموعة فحسب، وإنما نشرت في عدد من المجلات، وبثت كذلك عبر أثير الاذاعة السورية والقسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية، كل ذلك من دون أن يلاحظ أحد هذه الغلطة. وقد جاء عبدالسلام العجيلي من مدينة الرقة القريبة، حيث يمارس الطب هناك، وأمضينا مساء حافلاً معاً. أما وليد اخلاصي، الكاتب السوري الآخر المدرج في مجلد أكسفورد فلم أره إلا بصورة عاجلة، لأنه كان يوشك على المضي إلى الأردن لتجري له عملية جراحية.

في طريق عودتي من حلب إلى دمشق، تعرفت بأحد كتاب سوريا الأصغر سناً، وهو إبراهيم صموئيل، وأمضينا العديد من الأمسيات الممتعة في شقته التي كان شبان وشابات يابانيون يزورونها بصورة مستمرة، حيث اكتسح إبراهيم سوق إعطاء دروس في اللغة العربية لليابانيين المقيمين في دمشق. وقد أدرجت قصة له في أحدث مجموعاتي، «تحت سماء عارية»، والتي ألاحظ أن الكتاب السوريين لم يمثلوا فيها بصورة جيدة، وذلك على الرغم من أن زكريا تامر، المقيم الآن في انجلترا، قد حظي، مجدداً، بمكان فيها.

١٦

قضيت جانباً من حياتي في الخليج، وبصورة أكثر تحديداً فيما أصبح الآن دولة الإمارات العربية المتحدة، وقد أردت منذ وقت طويل أن أقدم مجلداً من القصص القصيرة من هذه المنطقة. وقرأت الكثير من قصص الكاتب الدبوي محمد المر، ولكنني وجدت أن مجلدين من أعماله قد تُرجما بالفعل إلى اللغة الانجليزية، المجلد الأول من قبل بيتر كلارك والثاني تُرجم بقلم جاك بريجز، الذي ربطتني به الصداقة منذ وقت طويل في قطر. ولازلت أنتظر قيام محمد بانجاز رواية عن دبي والطريقة التي تقدمت بها في غضون خمسين عاماً من كونها مركزاً تجارياً لتوزيع السلع إلى المدينة الكبرى ذات الأبنية الشاهقة التي أصبحت عليها اليوم. وقد أتيحت لي ذات مرة الفرصة النادرة، في عام ١٩٥٠، عندما كنت أقيم في قطر للقيام بزيارة قصيرة إلى دبي. وقد ذهبت إلى هناك للقيام بأعمال الترجمة لصالح الحاكم آنذاك، المغفور له بإذن الله الشيخ سعيد، والد المرحوم الشيخ راشد، وجد صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات رئيس الوزراء حاكم دبي، وذلك في المفاوضات التي كان يجريها مع شركة نفط. وقد أوضح لي أنني لن تُدفع لي أتعاب، حيث أن المشيخة لاتزال فقيرة، ولكنها كانت مكافأة كافية لي أن أقضي أياماً قلائل في دبي، التي كانت قد ظلت بلا تغيير وقتاً طويلاً للغاية، ثم مؤخراً فحسب قررت أن تتحدى بقية

العالم بمبانيها الشامخة، وأن تدخل رهان السياحة. ولم يكن هناك فندق في دبي أنذاك، فنزلت لدى رون كودري، الذي أرّخ لتلك الأيام بالكاميرا، جنباً إلى جنب مع ولفريد ثيسجر، في هذا الجزء من العالم.

أقوم، في أيامنا هذه، بزيارة أبوظبي مرتين كل عام، وأمضي دائماً بضعة أيام في دبي، أنزل خلالها ضيفاً على محمد المر. وخلال إحدى زياراتي الأخيرة. أبلغني بأنه كان قد قرر قراءة النتاج الأدبي الذي أبدعه نجيب محفوظ كله، وأنه وجده مؤثراً إلى حد كبير. وكنت قد وعدت نفسي بأنني سأجد الوقت للبحث في صفوف الكتاب في الإمارات عمن قدموا مادة كافية لمجلد من القصص القصيرة. ويساعدني في هذا صديقي كامل يوسف حسين، الذي عمل طويلاً بالصحافة في دبي، والذي تابع باهتمام الساحة الأدبية في المنطقة منذ البدايات. وكان كامل مسؤولاً كذلك عن خوض غمار تجربة فريدة من نوعها، فقد أجرى مقابلة صحافية معي لمجلة «العربي» الكويتية، وبعد شهور عدة، وفيما كنت في القاهرة، اتصل بي هاتفياً صديقي محمد المخزنجي، الذي يعمل بملحق «العربي الصغير» الذي تصدره المجلة، ليقول لي إن لديه مبلغاً من المال مستحقاً لي كمكافأة عن المقابلة، وهي المرة الأولى التي تلقيت فيها مكافأة مالية عن مقابلة صحافية أُجريت معي.

ربما كان من الطبيعي، بعد أن أمضيت معظم عمري في مصر، أنني أعطيت مكان الصدارة في أنشطتي في مجال الترجمة لكتاب مصريين. يتألف العالم العربي من بلاد عدة، ومن المتعذر متابعة ما ينشر فيها جميعها. وفيما يتعلق بكتاب من المغرب، الجزائر وتونس، فإن هناك العديد من الكتاب المنتمين إلى شمال إفريقيا الذين تعد اللغة الفرنسية مألوفة بالنسبة لهم كالعربية (وبعضهم، مثل الطاهر بن جلون، ينجزون كتاباتهم باللغة الفرنسية)، ومن هنا فإنه ليس مدهشاً أن نجد العديد من كتاب شمال إفريقيا، الذين ليسوا معروفين إلا بالكاد في بقية العالم العربي، تتوافر أعمالهم في ترجمات فرنسية. ولدى قيامي بإعداد مجلدي الأخير من القصص القصيرة، أسعدني

أن أجد قصة ممتازة لكاتب تونسي يدعى ابراهيم درغوثي، الذي اكتشفت في وقت لاحق أن أعمالاً كثيرة له قد تُرجمت إلى الفرنسية، وذلك على الرغم من أن هذه القصة القصيرة تعد ظهوره الأول في اللغة الانجليزية. ومن أعمال الروائي والناقد المغربي محمد براده، الذي يزور القاهرة بانتظام، ترجمت قصته القصيرة «حياة بالتقسيط» التي ظهرت في مجلد سابق لي نشرته دار كوارتيت، حيث اجتذب اهتمام العديد من النقاد الانجليز. وهناك كاتب آخر من شمال إفريقيا جدير بأن نأتي على ذكره، هو الكاتب الليبي إبراهيم الكوني. وقد حرصت على أن أدرج قصة له في المجلدين اللذين أنجزتهما منذ بروز كتاباته، وكتبت له مؤخراً – حيث يقيم في سويسرا – عن رغبتي في ترجمة روايته القصيرة «نزيف الحجر»، لا لشيء إلا لأجد أن أحدهم يشتغل عليها بالفعل، والكثير من أعماله في غمار عملية ترجمتها إلى اللغة الألمانية. ومن المدهش، بالنسبة لي، أنه في بلاد مثل فرنسا وألمانيا هناك اهتمام يعطي لترجمة القص العربي الحديث، يفوق ما هو موجود في بريطانيا وأميركا. وفي بريطانيا اليوم، مع توقف دار كوارتيت عن إضافة عناوين جديدة إلى قائمتها، فليس هناك ناشر واحد متاح لمثل هذا العمل، وذلك على الرغم من أن دار نشر هارفيل قد فتحت، فيما يبدو، قوائمها للقص المترجم عن العربية.

من بين الكتاب المصريين الذين ترجمت لهم محمد البساطي، فبعد أن أعجبت به طويلاً ككاتب للقصص القصيرة الموجزة والدالة، كان من الطبيعي أن يكون أول كتاب أترجمه من أعماله مجلداً من القصص القصيرة يمثل أعماله. وأسعدني أن أرى من خلال عرض لمَّاح للكتاب بقلم المستعرب روجر ألين Roger Allen أن مواهبه قد وجدت من يلاحظها. وأتبعت ذلك برواية قصيرة بعنوان «بيوت وراء الأشجار». ويكتب البساطي ببراعة بالغة وفهم للعالم الضيق الذي يعمل فيه، وهو حياة القرية حول منطقة بحيرة المنزلة والناس العاديون الذين يشكلون الحياة اليومية. وإحساسي هو أنه ما من أحد يقوم بهذا على نحو أفضل منه. وقد دهشت عندما علمت، لدى سؤاله عما إذا كان يعود إلى القرية بين الحين والآخر، أنه لم يعد إليها قط منذ غادرها للقدوم إلى جامعة القاهرة. وقد بدأ مؤخراً فحسب في توسيع آفاق هذا العالم والكتابة عن القاهرة، التي اتخذها موطناً له. وإذ ربطتني الصداقة به سنوات طويلة، فقد استمتعت بملاحظاته الساخرة عن المواقف

والناس، وأصبحت أقابله بصورة أقل منذ اعتكافي معظم الوقت في داري الممتدة عشوائياً في الفيوم. ولكننا على اتصال بالهاتف، ويسعدني أنه يبدو أنه يقدّر نصحي بما يكفي لاستشارتي بشأن أي مشروع كتابي يفكر فيه.

من الكتاب الآخرين الذين أصدرت لهم مجلداً يمثل أعمالهم سعيد الكفراوي، وذلك تحت عنوان «تل الغجر». وهو بدوره يكتب عن حياة الفلاحين إلى حد كبير، وذلك على الرغم من أنه اقتصر، حتى الآن، على كتابة القصة القصيرة. وهو يكتب بنزعة تجميلية معينة، ويحاول أن يُضفي على الفلاح أبعاداً إضافية، بحيث لا تعود قصصه مجرد عمليات تصوير لطريقة حياة بدائية.

يُعد محمود الورداني كاتباً موهوباً من كتاب الساحة الأدبية المصرية، وقد ترجمت له العديد من قصصه، وقد جاء إلى داري الريفية في الفيوم لإجراء مقابلة طويلة معي لصحيفة «أخبار الأدب» الأدبية القاهرية. وقد لختيرت رواية قصيرة له لترجمتها وتصدرها دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة. ولا يملك المرء إلا التساؤل: ماذا كان يمكن للأدب العربي الحديث المترجم أن يفعل من دون جهود دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة التي اضطلعت بمسؤولية إصدار ثلاثين طبعة من كتب محفوظ باللغة الانجليزية وما يزيد عن خمسين طبعة من كتب مبدعين آخرين؟

ثم هناك صديقي القديم جميل عطية إبراهيم، الذي غادر القاهرة في الأيام الخوالي للقيام بالتدريس في أصيلة، أحد منتجعات المغرب البحرية الجميلة، والتي كتب عنها رواية، تحمل عنوان «أصيلة»، ثم استقر في سويسرا مع زوجته السويسرية، حيث عمل بالصحافة، وعكف على انجاز كتاباته الإبداعية في وقت فراغه. وقد ترجمت له قصصاً ظهرت في مختارات تضمها مجلدات. وتمت ترجمة إحدى رواياته، من قبل فرانسيس لياردیت Frances Liardet وصدرت عن دار كوارتيت.

يوسف أبوريه كاتب آخر من الكتاب الذين ترجمت لهم قصصاً قصيرة وقمت بنشرها، وقد عرفته منذ أيام يحيى الطاهر عبدالله، عندما كنا صديقين له، ولم تترجم رواية له حتى الان، وذلك على الرغم من أن رواية حديثة له بعنوان «ليلة عرس» يتصدر شخصياتها فلاح أصم وأبكم تجرى الأن ترجمتها تمهيداً لإصدارها من قبل دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة.

يعد نبيل نعوم جورجي كاتباً ذا موهبة استثنائية، وقد مضى إلى باريس، ويبدو أنه لم يعد يكتب، أو على الأقل لم يعد ينشر ما يكتبه. وبعد أن أمضى وقتاً في نيويورك فإنه يعرف اللغة الانجليزية، وتعمق في قراءة أعمال أدبية قلما يتطرق إليها الكثيرون في عالم الأدب، ومنها على سبيل المثال كتابات جورجي لويس بورجيس، ياسوناري كاواباتا، والمتصوفة المسلمين. وقد مضت قصصه غير العادية إلى حد ما، والتي تحمل ايماءات مروعة، من دون أن يلحظها أحد بالفعل في اللغة العربية، ولكنني ترجمت مجلداً منها أصدرته دار كوارتيت تحت عنوان «حلم العبد»، وتلقى التفاتة حافلة بالمديح من صحيفة «أوبزرفر».

يعتبر جمال الغيطاني، رئيس تحرير «أخبار الأدب»، بالطبع، شخصية بارزة في العالم الأدبي، وقد ترجم فاروق عبدالوهاب روايته «الزيني بركات» إلى اللغة الانجليزية ونشرتها أولاً دار بنجوين، ثم مؤخراً أصدرتها الجامعة الأميركية بالقاهرة، كما تمت ترجمتها كذلك إلى لغات أوروبية عدة، وقد أدرجت قصة قصيرة له في «تحت سماء عارية».

تظهر قصة لخيري شلبي كذلك في «تحت سماء عارية»، وهو لديه كتابات كثيرة. وقد تأثرت كثيراً بـ «وكالة عطية»، وهي رواية ذات خلفية محلية من النوع الذي قدمه أولاً نجيب محفوظ في روايات مثل «زقاق المدق». ولكنها، من منظوري، تتمتع بميزة كتابة حوارها بالعامية. وهي رواية جديرة بأن تترجم، وفي وقت من الأوقات راودتني فكرة ترجمتها بنفسي، وذلك على الرغم من أن طولها قد ثبط همتي. ومع ذلك،فإنها الآن وقد فازت بجائزة ميدالية نجيب محفوظ للأدب تجري ترجمتها تمهيداً لنشرها من قبل دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة.

ظل محمد المخزنجي صديقاً مقرباً لي منذ ذلك الوقت الذي جاء فيه وطرق باب شقتي وقدم لي نفسه. ومنذ ذلك الحين غادر مصر لدراسة الطب والطب البديل في الاتحاد السوفيتي، ثم عمل بمجلة «العربي» في الكويت. وقد عاد الآن إلى القاهرة، وهو يعمل في ملحق «العربي الصغير» الذي تصدره المجلة. وقد عرف في الأيام الخوالي بحكاياته أو لوحاته القلمية التي غالباً ما لا تتجاوز المئتي كلمة، والتي تختزل ملاحظة زاخرة بالقوة عن موقف عادي، وقد ترجمت العديد منها ونشرته. وهناك قصة

قوية، عادية الطول، هي قصة تدور ظاهرياً حول سرب من البط يحط على مياه بحيرة، ولكنها تحمل رسالتها السياسية، احتلت صدر مجلد «تحت سماء عارية». ويشترك كلانا في الاهتمام بالحيوانات.

تعد سلوى بكر كاتبة من عدد متزايد من الكاتبات اللواتي يشكلن اليوم جزءا من الساحة الأدبية في العالم العربي. ومن المثير للاهتمام ملاحظة أنه في مجلداتي الثلاثة التي تضم قصصاً من العالم العربي نجد أن المجلدين الأولين الصادرين على التوالي في ١٩٦٧ و١٩٨٣ يضم كل مجلد منهما كاتبتين من اجمالي عشرين كاتباً، بينما المجلد الأحدث الصادر عام ٢٠٠٠ يضم قصصاً لثماني كاتبات من إجمالي ثلاثين كاتباً.

أتذكر أنني قابلت سلوى لأول مرة منذ سنوات عدة،حيث قدمت لي رزمة من قصصها، وهي لاتزال مخطوطة. والتقينا في وقت لاحق في مقهى ريش، وهي ملتقى أثير لدى مثقفي القاهرة، حيث أعدت إليها المخطوطات، وقدمت لها ما اعتقدت أنه مفيد من التعليقات على بعض القصص. غير أنني كان ينبغي أن أعرف أن الكتاب لا يعرضون أعمالهم إلا لتتم الاشادة بها، ولست أنا نفسي مختلفاً في هذا الصدد. وما لم أكن أعرفه كذلك، في ذلك الوقت، هو أن سلوى مشهورة بكونها صريحة إلى حد الجراءة، فقد أشارت بقولها فجأة: «ماذا عساك تكون؟ مترجم أم مدرس كتابة؟». انبعثت واقفاً، وخرجت من المقهى، مقتنعاً بأن هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها سلوى بكر. وقد مضت إلى بيروت وقبرص، واتصلت بي بعد سنوات عدة لدى عودتها إلى القاهرة، وفي ذلك الوقت شرعت في انجاز مجموعة من قصصها في اطار ترجمة إلى الانجليزية. وأتذكر مقابلة أخرى لها في مقهى، هذه المرة قرب الأزهر. كنا نجلس عاكفين على مناقشة قصصها، وعندما حان وقت الانصراف اكتشفت أن معطفها، الذي كانت قد خلعته اختفى، ولاشك أنه سرقه فتى صغير كان قد حام حولنا عارضاً أمشاطاً للبيع. وأدهشتني هذه المرة رباطة جأشها الملحوظة، حيث تقبلت فقدان المعطف بما لايزيد على هز كتفيها، تعبيراً عن اللامبالاة، والإشارة إلى أن الفتى كان بارعاً إلى أقصى حد.

نشرت دار كوارتيت المجلد الذي ترجمته من قصص سلوى بكر تحت عنوان «كيد

الرجال». ولم يحقق مبيعات جيدة (على الرغم من أن دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة أعادت اصداره)، ولكنني أوثر الاعتقاد بأنه قد فتح الطريق أمامها لنشر أعمالها المترجمة بصورة أكثر كثافة، وبصفة خاصة في إطار ترجمات إلى اللغة الألمانية.

العراقية بثينة الناصري هي كاتبة أخرى تقتضي أعمالها الترجمة، وهي مقيمة في القاهرة، وقد أنجزت مجلداً يضم قصصاً قصيرة لها، مختارة من مجموعات عدة لها كانت قد نشرتها باللغة العربية، وأصدرت دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة المجلد الذي ترجمته تحت عنوان «الليلة الأخيرة».

١٧

أمضيت جانباً كبيراً من وقتي، منذ بعض السنين، في تأليف كتب للأطفال. وقد بدأ اهتمامي بهذه الكتب لأول مرة عندما دعاني صديق سوري ثري من أصدقائي لقضاء بضعة أيام معه في داره الفخمة بجنوبي اسبانيا. وذات يوم كنا جالسين نتجاذب أطراف الحديث، عندما مرّ ابنه الصغير مسرعاً إلى جوارنا، فناداه صديقي. وسأله ما إذا كان يعرف معركة بدر. وكشف لنا ما ارتسم على محيا الفتى أن هذا الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة له. وأوضح سؤال أو اثنان آخران أن الفتى لا يعرف شيئاً تقريباً عن دينه، أو عن تاريخ هذا الدين. وأوضح لي صديقي أن الفتى يدرس في مدرسة خاصة انجليزية - هي إيتون ذات الشأن الرفيع - ولكنه لا معرفة له باللغة العربية أو بالإسلام. وبقدر معرفته فليست هناك كتب باللغة الانجليزية عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يمكن للفتى أن يقرأها. وطلب مني تأليف مثل هذا الكتاب، وذكر مبلغاً جسيماً سيُدفع لي على سبيل المكافأة.

مضيت سعيداً بهذا التكليف، الذي جاءني من السماء، وذهبت إلى حيث السكينة والهدوء في كوخي في كيري، حاملاً معي العديد من الكتب باللغة العربية، حول سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومرحلة صدر الإسلام. وبدا أن الموضوع لا يطرح صعوبة في تناوله، ولكنني عندما وصلت إلى مرحلة تأليفه الفعلية أصابتني، للمرة الأولى في

حياتي، ما يعرف بـ «عقدة توقف المؤلف عن الكتابة» وكلما سعيت للتغلب عليها، بدت المهمة لي أكثر استحالة. ترى هل كان الأمر راجعاً إلى أنني طُلب مني تأليف كتاب للأطفال وهو شيء لم أجربه في السابق قط؟ وربما ضاعفت من الصعوبة التي أواجهها الحقيقة القائلة إن صديقي، بحكم كونه كريماً ويثق بي، أصرَّ على أن يعطيني، هناك وفي التو، شيكا بالمكافأة التي كان قد اقترحها، وقمت بصرف الشيك بالفعل، وحصلت على المبلغ نقداً، ووصلت إلى مرحلة شعرت فيها بأنه ليس أمامي ما أفعله إلا الجلوس وتحرير شيك لراعي المشروع بالمبلغ الذي تلقيته. وعلى الرغم من ذلك فإنني بدأت في تأليف أجزاء مختلفة من الكتاب، وفي وقت لاحق قمت بدمجها معاً لأفرغها في إهاب سيرة حياة النبي صلى الله عليه وسلم، على نحو ما ينظر إليها عبر الأحداث الرئيسية في حياته، منذ مولده إلى التحاقه بالرفيق الأعلى.

لدى عودتي إلى لندن، سلمت المخطوط إلى راعي المشروع،و انطلقت محاولاً العثور على ناشر مناسب للكتاب، ومنذ هذه اللحظة بدأت متاعبي. أراد راعي المشروع، على نحو يمكن تفهمه، التأكد من أن الكتاب الذي أصدر تكليفاً بتأليفه لا يتضمن شيئاً يمكن الاعتراض عليه، ومن هنا فقد كلَّف من يبعث الكتاب إلى خبير اختصاصي في هذا الموضوع في المملكة العربية السعودية. ومن يُطلب منهم التعليق على مخطوط غالباً ما يكونون سعداء للغاية عندما يجدون أخطاء، بينما آخرون عندما لا يجدون شيئاً ينتقدونه فإنهم يطلعون بالضرورة بشيء يقولونه ضد الكتاب. وبدلاً من أن يقوم الباحث السعودي – على سبيل المثال – بالاعتراض على الروح العامة للكتاب، أشار إلى العديد من الأخطاء الصارخة المفترضة في الوقائع. وطلب مني راعي المشروع مقابلته بشأن الكتاب. وألقى التقرير بقوة إليَّ عبر المائدة. ومن الطبيعي أنني ذهلت، ولما كنت حيياً بطبيعتي، فإنني لم يكن بوسعي إلا أن أغمغم قائلاً إنني واثق من إنني لم أرتكب مثل هذه الأخطاء، ترى هل يمكن أن تكون الكتب العديدة التي كنت قد قرأتها حول الموضوع بالانجليزية والعربية هي نفسها التي تضمنت أخطاء في الوقائع؟ من حسن طالعي أن صديقي دكتور عز الدين إبراهيم، وهو باحث متبحر في كل ما يتعلق بالإسلام، والذي كان أستاذاً للغة العربية في جامعة الرياض، ثم أول نائب لرئيس جامعة الإمارات العربية المتحدة، تصادف وجوده في لندن في ذلك الوقت، فمضيت

بالتقرير إليه. وبعد أن قرأه بإمعان أبلغني بقوله: «الرجل بالغ الجهل!»، وأكد لي أنه في كل مثال كنت أنا على حق، وليس من يسمى بالخبير. وأشار كذلك - وهو ما لم ألاحظه في حالة التشوش التي مررت بها - إلى أن تقرير الرجل قد احتوى على ما لا يقل عن ثلاثة أخطاء نحوية! لكن كيف أقنع راعي المشروع بأنني، أنا الانجليزي، كنت على حق وأن «خبيره» السعودي على خطأ؟ في نهاية المطاف، سألت عز الدين عما إذا كان يمكنه لطفاً القدوم معي لمقابلة راعي المشروع. وبهذه الطريقة تم اقناعه بأن الكتاب الذي قمت بتأليفه خال من الأخطاء.

لكن متاعبي مع الكتاب لم تكن قد انتهت، فبعد أن فشلت في العثور على ناشر بريطاني له، أعطاه راعي المشروع إلى رياض الريس، وهو صديق سوري من أصدقائه لديه مكتبة في لندن، وشقَّ طريقه أيضاً إلى ميدان النشر. وكنت قد قمت بالفعل بتصحيح بروفات الكتاب عندما قرَّر رياض الريس الانتقال إلى بيروت. هناك تم تسليم الكتاب إلى موظفيه المحليين، الذين ادعوا أنهم يصححون أخطاء وقعت فيها في اللغة الانجليزية، وأعادوا صفه، جاعلين منه خبيصة حقيقية، وعلى سبيل المثال فإن مقدمتي Foreword جُعلت Forward وعلى الخريطة الخاصة بإفريقيا في الورقة الأخيرة ظهرت Assyria بدلاً من Abyssinia. ومما يدعو للسعادة أنني لا أعتقد أن الناشر بذل أي محاولة لبيع الكتاب، ومن المؤكد أنني لم أتلق أي تقارير منه عن أي مبيعات للكتاب.

على الرغم من أن تجربتي مع أول كتاب للأطفال من تأليفي كانت تجربة سيئة، الا أنها ربما مهدت السبيل للوقت، الذي سيحل بعد ذلك بسنوات عديدة، الذي سألني فيه نيل هيوسون في دار نشر الجامعة الأميركية بالقاهرة عما إذا كنت على استعداد لتأليف كتابين للأطفال لهما خلفيات مصرية، وأوضح أن لديه صديقاً يدعى أندي سمارت Andy Smart يستهل مغامرة في عالم النشر لاصدار كتب للأطفال باللغة الإنجليزية. وعندما مضيت للقاء أندي، أبلغني بأن المجلس البريطاني قد وعد برعاية كتابين إذا قمت أنا بتأليفهما. كنت سعيداً للغاية بالموافقة على أن يكون أحد الكتابين - وفقاً لما اشترطت عليه - مجموعة من القصص التي تدور حول الحكيم - الأحمق التقليدي جحا، وهي شخصية استمتعت بها دوماً. وفي وقت لاحق، قمت بتأليف كتاب

يضم قصص جحا وآخر يضم قصصاً مستمدة من الفولكلور المصري التقليدي. ومن المثير للاهتمام أن العالم العربي لم يحظ قط بأي أدب مكتوب خصوصاً للأطفال. وبينما ننظر في الغرب إلي «ألف ليلة وليلة» باعتبارها أحد الأعمال الكلاسيكية العظيمة للأطفال، فإنها لم يقصد بها أصلاً أن توجه إلى الأطفال بأي حال من الأحوال. وعلى سبيل المثال، فإنني عندما بحثت عن القصص لكتاب عن السندباد، وجدت جانباً كبيراً من المادة غير مناسب بالمرة. وفي حقيقة الأمر، فإن «ألف ليلة وليلة»، التي تحظى بالإشادة البالغة في الغرب، لا تتمتع بتقدير كبير من جانب الكثير من العرب.

وعلى هذا النحو بدأت زمالة قدَّمت ما لا يقل عن أربعة عشر كتاباً، جميعها أبدع رسومها فنانون مصريون محليون، وكلها معالجات لقصص مستمدة من أعمال مثل «ألف ليلة وليلة»، الأساطير العربية التقليدية وقصص من التاريخ العربي، بما في ذلك كتب عن صدر الإسلام. وقمت كذلك بتأليف كتاب ثانٍ عن قصص جحا. وقد أدار أندي هذا النشاط العملي – دار هوبو – مع زوجته المصرية نادية، وحقق مبيعات كبيرة، حيث بيع من العديد من الكتب ما يزيد على عشرة آلاف نسخة من الكتاب الواحد. وعلى الرغم من ذلك فإن دار هوبو، وبصفة خاصة مع النقص المضطرد في قيمة الجنيه المصري، لم تستطع أن تقدم له الدخل الذي كان بحاجة إليه، حيث تعين عليه أن يدفع رسوم مدارس ابنيه بالدولار الأميركي، فقرر العودة إلي بريطانيا. وعلى الرغم من أن دار هوبو لاتصدر كتباً جديدة، فإن الكتب الموجودة تواصل مبيعاتها، ويعاد طبعها.

في غضون ذلك، وبحكم رغبتي في مواصلة تأليف كتب الأطفال، وجدت لدى دار الشروق، وهي دار النشر الأكثر بروزاً في مصر، استعداداً للمخاطرة بنشر كتب الأطفال باللغة الانجليزية، خاصة أن أميرة أبو المجد، زوجة إبراهيم المعلم صاحب دار الشروق، والتي تتولى المسؤولية عن جانب كتب الأطفال من نشاط الدار، قد أقامت في الولايات المتحدة خلال فترة من حياتها، وتتحدث الانجليزية بطلاقة.

حتى اليوم أصدرت دار الشروق حوالي خمسة عشر كتاباً من هذه النوعية، ويبدو أن احتمالات المبيعات آخذة في التحسن. والكتب، شأن سابقاتها التي أصدرتها دار هوبو، هي اقتباسات إلى اللغة الانجليزية مستلهمة من الفولكلور العربي، وذلك على

الرغم من وجود استثنائين، أنجز رسومهما كليهما فنان ايطالي، فقد تصادف خلال صيف قُضى في المغرب أن هربنا من حر مراكش إلى بلدة الصويرة المطلة على البحر، حيث شاهدت في أحد المعارض الفنية العديدة بالبلدة بعض اللوحات اللافتة للنظر التي تصوّر قططاً - وهي حيوانات محببة إلى قلبي - أبدعها روجيرو جيانجيكومي Ruggero Giangiacomi وقابلت هذا الفنان، واتفقنا على أنني إذا ألفت كتاباً للأطفال، فإنه سيقوم بإنجاز رسوماته الإيضاحية. وبعد يومين، عدت بكتاب صغير عنوانه «القطة والفنان»، تقع أحداثه وسط قوارب صيد الأسماك الراسية في ميناء الصويرة، ثم قدمنا معاً كتاباً ثانياً عنوانه «بهلوانات مراكش».

عندما مضيت إلى الصويرة، تعرفت بدنماركي يدعى فريدريك دامجارد، والذي كان قد أنشأ معرضاً فنياً ممتازاً هناك. وكان المعرض مكرّساً لحركة الفن البدائي فقط، وهي الحركة التي كان يقوم بتشجيعها. وكان الشخص الرئيسي في هذه الحركة فنان يدعى الطبال، والذي كان دامجارد يروِّج أعماله بصورة نشطة، وعندما وصل الأمر إلى نشر كتيب باللغة الانجليزية عن هذا الفنان، طُلب مني القيام بالترجمة. وكُنت في أحاديثي مع صاحب المعرض قد اضطررت إلى الحديث بالفرنسية بحكم الظروف، وهي لغة مليئة بالشراك النحوية بالنسبة للأجنبي. غير أنه فيما يبدو أحس بأنني أهل لهذه المهمة، وهكذا قمت بانجاز ترجمتي الوحيدة عن الفرنسية، وكوفئت عنها بلوحة بدائية من إبداع الطبال.

بعد سنوات عدة، كانت بات جوتش Pat Gauch من دار بنجوين/ بوتنام في نيويورك تقضي عطلة في القاهرة، تزور خلالها ابنتها، واتصلت بي بشأن كتاب للأطفال كانت ترغب في ترجمته عن العربية، وأفضى هذا إلى قرارها بإصدار كتاب يضم قصص جحا، مع فكرة جديدة، قوامها تنفيذ الرسوم المصاحبة له أولاً في صورة إبداعات من فن الخيامية، وهو فن تجرى ممارسته بمهارة في القاهرة، ثم تصويرها بعد ذلك. وقد صدر الكتاب الناتج عن هذه الفكرة، وتلقى إشارات مشجعة.

في غضون ذلك، قرَّر أصدقاء لي في دبي، كانوا قد أنشأوا هناك ما لابد أنها أفضل مكتبة في الشرق الأوسط، أن يغامروا بخوض غمار النشر، ونحن بسبيلنا الآن إلى أن نرسل للمطبعة أول أربعة كتب ذات خلفيات متعلقة بالإمارات والخليج.

١٨

نبع اهتمامي بالحيوانات من طفولة ربما لعبت الحيوانات فيها دوراً أكبر مما لعبته في حياة معظم الأطفال. وخلال العامين الذين أمضيتهما في وادي حلفا في السودان، كنت المالك الفخور لحمار، ورأيت أبويّ يركبان الجياد والإبل، وأتذكر كذلك أنني كان لديّ أرنب، وكنا نربي الحمام. وفي وقت لاحق في أوغندا، كان لأبي كلب من نوع البولدوج، وكانت لأمي ببغاء، وكان لدينا كذلك قرد له سلسلة طويلة، اضطررنا للتخلص منه بسبب ميله إلى عض أي شخص يحاول مداعبته. وكانت لديّ القطة الأولى من بين قطط عدة. وأعد لي خادمي الخاص، ويدعى «شريف»، سلاسل من «النبلات»، التي استخدمتها ضد أي طيور لفتت انتباهي، ثم ارتقيت في مرحلة لاحقة إلى استخدام مسدس يعمل بالهواء المضغوط، ومن هناك إلى بندقية ٢,٢ وبندقية رش. وعلمني شريف كذلك كيفية إيقاع الطيور في الشراك، حيث كنت أحتجزها في أقفاص منزلية الصنع، فتصفق بأجنحتها يائسة إلى أن تستسلم لما هي عليه، وقد بدا عليها بجلاء أنها أكثر اهتماماً بحريتها من الطعام الذي أغويتها به. وفي المدرسة التي التحقت بها في كينيا، كانت الحيوانات موجودة بصورة بارزة كذلك. وأتذكر إثارة الاستماع إلى زئير أسد في الملاعب، وأنه قيل لنا إن أحد الأساتذة قد مضى لإطلاق النار عليه. ولدى اللعب في الدغل البري المحيط بالمدرسة كنا غالباً ما نصادف غزالاً. وكان جمع

الفراشات هواية أثيرة لدى الفتية، وامتدت هذه الهواية إلى أنواع مختلفة من الحشرات، وكذلك إلى عناكب باب مسحور كبيرة، مفزعة المنظر، كانت بيوتها متناثرة في الملاعب، وكان من اليسير إخراجها من بيوتها بدغدغتها بعشبة طويلة ثم المسارعة بلفها في منديل، ثم دفعها في زجاجة لتجفيفها. ولاتزال ذكرى من تلك الأيام تعاودني، حيث كان بعضنا، نحن الفتية، متجمعين ذات مساء حول مجموعة من الحشرات المختلفة، التي تثبت بالدبابيس على لوح. وفجأة شاهدت، على نحو مفزع، عنكبوت باب مسحور كبيراً، لم يكن قد قضى وقتاً كافياً في الزجاجة المستخدمة للقضاء عليه، ينتزع نفسه من اللوح، ويمضي عبر مكتب، ولايزال جسمه يخترقه دبوس كبير ذو لون برَّاق في أعلاه، وسرعان ما تم اكتساح المخلوق البائس بلفه في منديل مع وضعه في زجاجة التجفيف مدة ثانية. وقد كانت العناكب تخيفني دوماً، أكثر من الثعابين، وظل هذا المشهد، على وجه التحديد، مرتسماً في مخيلتي بجلاء بالغ، بقي هذا المشهد وذكرى كل الطيور التي قتلتها لمجرد الإثارة النابعة من ذلك.

لست أقرأ الفرنسية بسهولة، ولكن شيئاً ما دفعني، قبل سنوات مضت، إلى قراءة مقطوعة صغيرة كتبها مستشرق فرنسي، أشار فيها إلى أنه من بين كل الديانات السماوية فإن الاسلام قد أبدى أعظم اهتمام بالحيوانات، وتنتهي هذه المقطوعة بالإشارة إلى أنه لم يقم أحد بعد بدراسة مناسبة لهذا الموضوع، ولذلك فقد بحثت عن تلك المواضع في القرآن الكريم (الذي يحمل ما لا يقل عن خمس من سوره أسماء حيوانات) التي تتحدث عن الحيوانات، ثم مضيت إلى الحديث الشريف، وكوفئت على جهودي، حيث وجدت أنه يضم عدداً كبيراً من الوصايا بالرفق بحيوانات مختلفة، ثم وجدت أن الجاحظ العظيم قد ألف كتاباً جعل عنوانه ببساطة بالغة «كتاب الحيوان»، وأن الدميري بدوره قد ألف كتاباً شاملاً في هذا الموضوع. وكنت على وعي بالفعل بالقصص المسلية المتضمنة في كتاب «كليلة ودمنة»، وهو كتاب يضم حكايات تُروي على ألسنة الحيوانات، كان قد تُرجم من الفارسية إلى العربية، وأضيف إليه المزيد، فأصبح عملاً كلاسيكياً من أعمال الأدب العربي. وصادفت في وقت لاحق عملاً بعنوان «تداعي الحيوانات على الإنسان» من تأليف إخوان الصفا، في بغداد في القرن العاشر.

يعيد الذبح العشوائي للطيور الذي كنت مسؤولاً عنه في صباي إلى ذهني الحديث الشريف: «من قتل عصفوراً عبثاً، جاء إلى الله يوم القيامة يقول: يا ربي، قتلني عبدك عبثاً، ولم يقتلني منفعة». وهكذا فقد نشأ لديَّ إحساس معين بالذنب تجاه الحيوان، وهو ذنب ربما يمكن التكفير عنه بصورة جزئية من خلال محاولة القيام بشيء في إطار قضية الحيوان عندما أستطيع ذلك وبالكيفية التي يمكنني المساهمة بها. وهكذا فقد اقتبست إلى اللغة الانجليزية «تداعي الحيوانات على الإنسان» تحت عنوان «جزيرة الحيوانات». وقد نُشر هذا الكتاب جنباً إلى جنب مع مقدمة كتبتها عن تعاليم الإسلام، فيما يتعلق بمسؤوليات الإنسان نحو الحيوانات، وذلك من قبل دار كوارتيت. وقد طُبع بشكل فاخر، وزينته على نحو جميل رسومات الفنانة التونسية صبيحة خمير، ولكنه قوبل بصمت نقدي عام، باستثناء مراجعة حافلة بالتقدير كتبها توم بورتيوس Tom Porteous وهو مستعرب كنت معروفاً له، ومراجعة أخرى من قبل كاتب أشاد بعملي في مجالات أخرى، وتساءل عن السر في أنني أهدر وقتي في مثل هذا الموضوع! غير أن هناك من استلم رسالتي في الولايات المتحدة، حيث أصدرت دار نشر جامعة تكساس طبعة ذات غلاف ورقي من هذا الكتاب.

وفي وقت لاحق، عندما بدأت في نشر كتب الأطفال بالتعاون مع دار هوبو في القاهرة، قدمت كتاباً للأطفال بعنوان «حكايات حيوانات من العالم العربي»، تضمن قصصاً من «ألف ليلة وليلة» و«كليلة ودمنة» وكذلك من مجموعة صغيرة من القصص تحمل العنوان اللطيف «تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب».

١٩

أعد نفسي باستمرار مع كل كتاب أترجمه بأنه سيكون الكتاب الأخير، ولكنني مع ذلك أجد نفسي، شأن المدمن على النيكوتين، وقد عدت إلى عادتي التي درجت عليها. وبعد أن اتخذت القرار المهم بمغادرة القاهرة والمضي للإقامة في المغرب، جلست وجمعت عدد الكتب التي ترجمتها من الأدب العربي الحديث، فكان المجموع ثمانية وعشرين كتاباً. وتمكنت من إقناع نفسي بأنني ينبغي أن أجعل هذا الرقم رقماً دائريا، هو ثلاثون كتاباً، خاصة عندما اتصل بي صديق جاء إلى القاهرة، وأحضر لي مجموعة مختارات كبيرة مكرّسة للقصة القصيرة المغربية. ومن هنا فقد بدأت في تجميع مادة لمجلد من القصص القصيرة المغربية، وأحاول حالياً إثارة اهتمام أحد الناشرين بهذا المشروع قبل البدء في العمل. وكما سبق أن ذكرت من قبل، فإنني أحس بأن الأوان قد آن لقيام أحد بتقديم مجلد يضم قصصاً قصيرة مترجمة إلى الانجليزية من الإمارات، وقد وافقت دار النشر التي أنشأها حديثاً أصدقائي في دبي، عائلة بالهول، على إصدار مثل هذا المجلد (كان عبدالله بالهول رئيساً للشرطة في دبي، وقد تقاعد الآن، ولكنه ينشط الآن كعهده دائماً في إطار اهتمامات عدة، بما في ذلك مزرعة للنخيل قرب دبي، نغادرها مع كل زيارة لها بكميات كبيرة من أفضل التمور، من النوع المعروف باسم البرحي وينشط كل من زوجته، إيزوبيل، وابنهما منصور في إطار

المكتبات ومشروع النشر). وفي مجلدات كهذه، تتمثل إحدى الصعوبات في قراءة أعمال الكتاب ثم القيام بالاختيار. ويخفف إلى حد كبير من ثقل مهمتي، فيما يتعلق بمجلد الإمارات، صديقي المصري كامل يوسف حسين، وهو صحافي ومترجم متميز، مقيم في دبي، والذي وافق على تزويدي بالمجلدات الضرورية ومساعدتي في اختياري.

وأمامي أيضاً كتاب مختارات من معاني القرآن الكريم مرتبة بحسب الموضوع، انشغلت فيه أنا وصديقي عز الدين إبراهيم في السنوات القليلة الماضية. وربما قد نقدم أيضاً على تقديم كتاب رابع من الحديث الشريف. وفي الوقت نفسه فإنني آمل أن أقدم كتاباً للأطفال بين الحين والآخر.

كانت أمكانية أن أكرّس وقتاً، ذات يوم، لأن أكون مترجماً شيئاً يصاحبني بجلاء منذ وقت جد مبكر. ومؤخراً مضيت أقلب بعض الأوراق القديمة، فصادفت مقالة عن «الترجمة والمترجمون»، كنت قد نشرتها في مجلة لندنية هي مجلة «الأدب والفن» في ١٩٤٦، أي قبل أن أقوم بنشر أي ترجمة لي. أعدت قراءة المقال، فوجدت أنه يعبر عن الأفكار ذاتها التي لاتزال لديَّ عن هذا الموضوع، بعد حوالي ستين عاماً. ترى أين سيكون العالم الثقافي من دون المترجمين؟ كيف تأتيَّ لنا جميعاً الوصول إلى هوميروس وكتابات الإغريق، إلي كتب من نوعية «ملحمة جلجامش»، إلى الروس، سرفانتس، بروست، بيسوا وهلمجرا؟ وتساءلت في مقالي: بعد قراءة أعمال كتاب مثل دستويفسكي، من الذي يتذكر اسم كونستانس جارنيت Constance Garnett المرأة المسؤولة عن ترجمة الكثير من الأدب الروسي المبكر؟ وأشير إلى أن الترجمة فن يتطلب ما يزيد بكثير عن معرفة لغتين مختلفتين. وأذكر كذلك أن بعضاً من الشخصيات الأدبية العالمية العظيمة لم تجد أنه من غير المناسب لها أن تجرب أقلامها في الترجمة. ومن هؤلاء الكتاب بودلير الذي ترجم بعض أعمال إدجار ألان بو إلى الفرنسية. وفي

حقيقة الأمر، فإن النجاح الذي أحرزه كشاعر في حياته كان محدوداً للغاية بحيث أنه غالباً ما كان يصف نفسه بفخر بأنه «مترجم بو»، بل أن العظيم بروست بدأ حياته الأدبية بترجمة بعض كتابات راسكين، ثم هناك ديفيد هربرت لورنس الذي ترجم رواية «ماسترو دون جيزوالدو» لجيوفاني فيرجيا من الأصل الايطالي وهلمجرا. ويبدو أن العرب الأوائل قد أظهروا تقديراً أكبر لمترجميهم، حيث تشير السجلات إلى أنه في العصور العباسية المبكرة كان حنين بن اسحق، المترجم الشهير، يُدفع له راتب شهري كبير، وأن الخليفة المأمون قد كافأه بوزن الكتب التي ترجمها ذهباً. وأجد نفسي وقد شدّدت في ذلك المقال الذي يعود إلى عام ١٩٤٦، على نحو ما أشدّد اليوم، على أن الترجمة ليست مسألة وضع كلمة موضع أخرى. إنها فن، والأمر كما قال أحدهم يوماً: «لا شيء يتحرك بدون الترجمة».

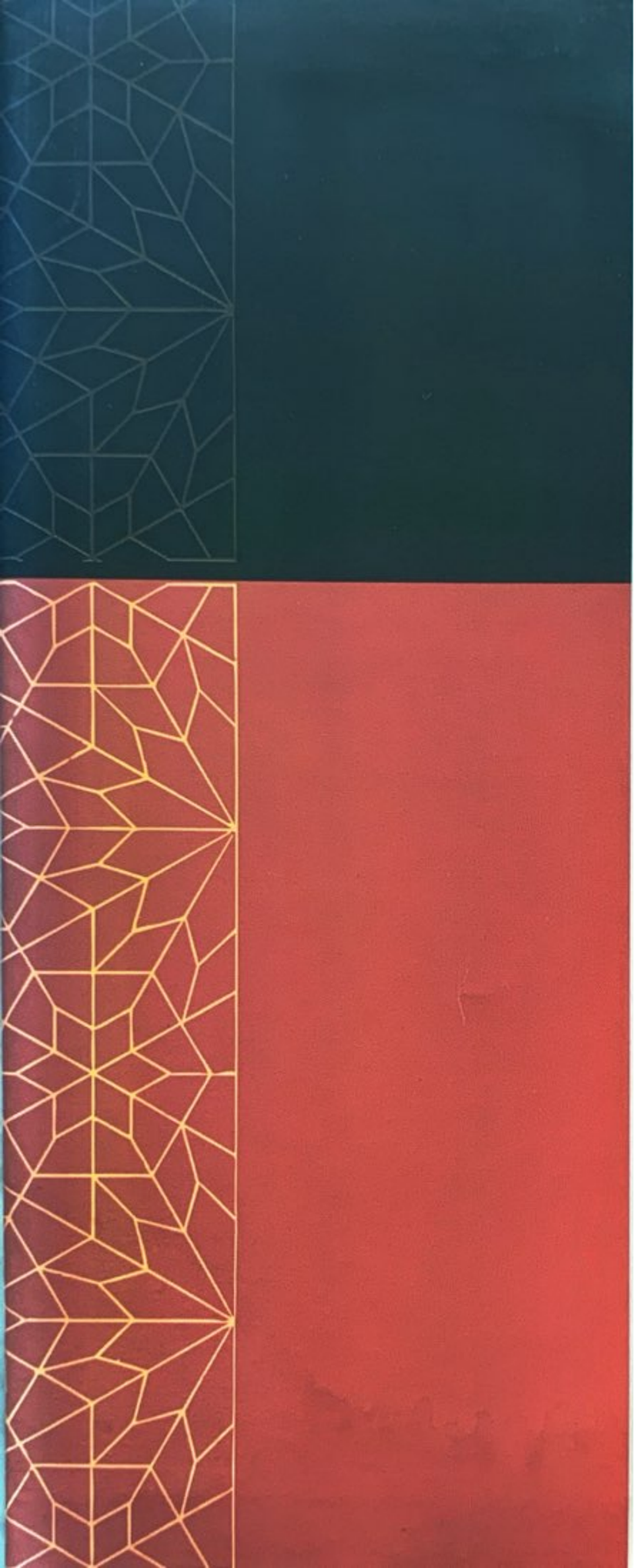

لم ينجز أحد في ميدان ترجمة الأدب العربي الحديث أكثر مما أنجزه دنيس جونسون ديفز، الذي وصفه الراحل إدوارد سعيد بأنه: «رائد الترجمة من العربية إلى الانجليزية في عصرنا».

وعبر رصيد يزيد على خمسة وعشرين مجلداً، من الروايات والقصص القصيرة والمسرحيات والقصائد التي ترجمها، وحياة عملية تمتد على مدار حوالي ستين عاماً، قدم أعمال حشد من الكتاب من مختلف أرجاء العالم العربي إلى أعداد متزايدة من القراء باللغة الانجليزية. وهو هنا يروي قصة حياة أمضاها في الترجمة، ويقدم لمحات حميمة من الكثير من الكتاب العرب، الذين تزداد معرفة الغرب بهم.

ولد دنيس جونسون ديفز في كندا، ونشأ في السودان وشرق إفريقيا. وهو يقسم وقته الآن بين مراكش والقاهرة.

ISBN 978-9948-431-31-2